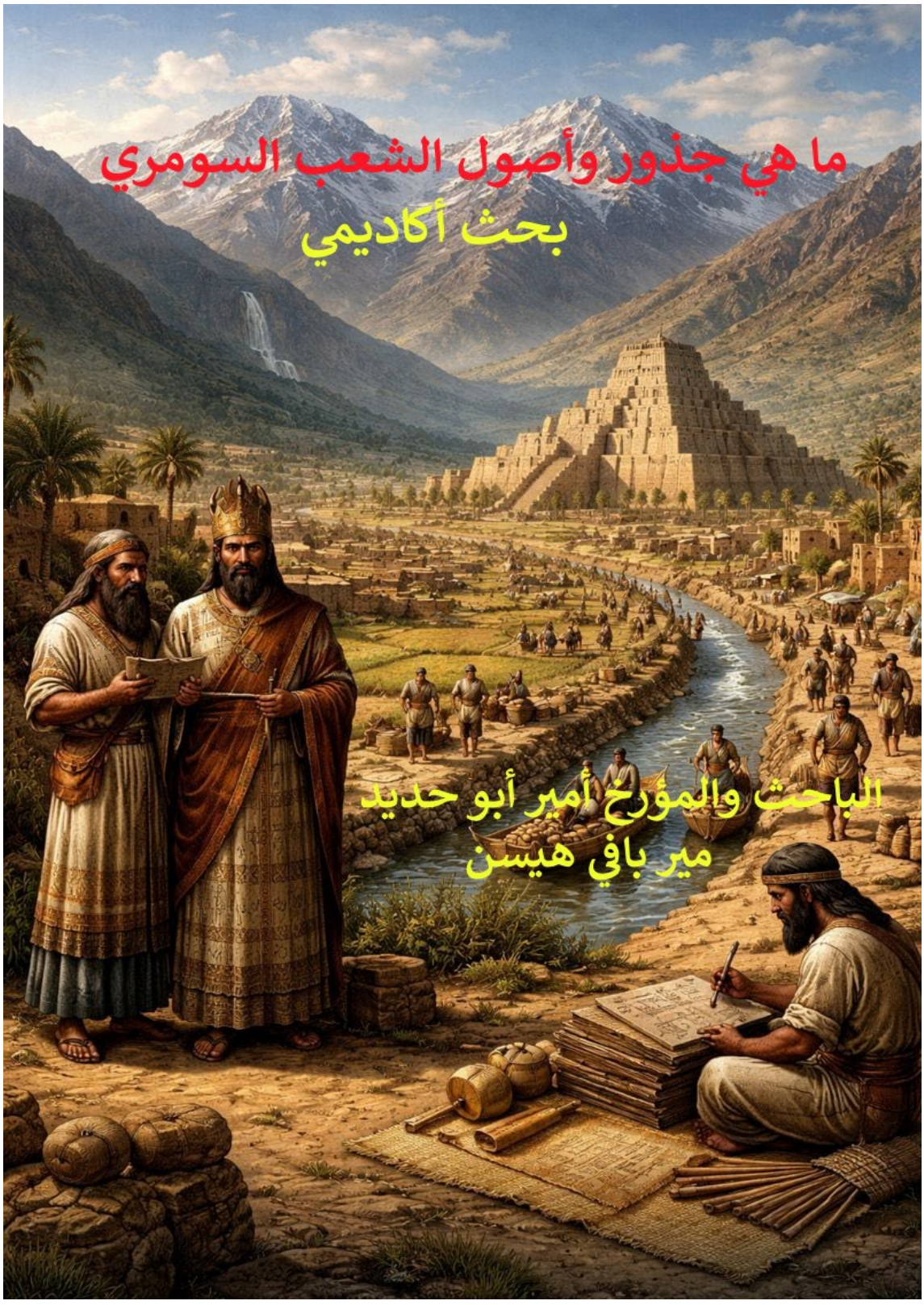

بحث أكاديمي موسَّع حول الجغرافيا الأصلية للشعب الحوري/الخوري/الهوري وأثرها في تكوين الحضارات الرافدينية

المقدمة:

من خلال بحوثاتي الطويلة توصلت الى نتيجة أو لنقل الى نظرية تثبت من هو الشعب السومري لطالما العديد من العلماء والباحثين لم يتوصلوا الى هوية وجذور الشعب السومري **!** منهم من قال بأنه شعب جبلي ومنهم قال بأنه شعب مهاجر الخ .ولكن من خلال بحوثاتي عن الشعب الحوري الذي انا اعده شخصيا هو الشجرة ذو الجذور المتينة والقوية لجغرافية بلاد الشرق الأدنى وبما ان الشعب السومري هو من جغرافية هذه المناطق الحورية اذن هو نفسه الشعب الحوري لكن أطلق عليه اسم جديد نسبة للمدينة التي بنوها.تماما مثل الشعب الآكادي أطلق اسم الآكاديين على سكان المدينة نسبة للمدينة التي بنوها. طبعا في البداية أعطي بعض المعلومات بشكل مختصر ولكن من بعد اتوسع بالشرح أكثر فأكثر حتى يستطيع القارىء أن يصل الى ما أقصده أنا,فكرتي ونظريتي هي أن الشعب الحوري هو الشجرة الكبيرة ذو الجذور العميقة لهذه الاراضي الشاسعة . يتفرع من هذه الشجرة عدة فروع وأغصان وهم السومريين والآكاديين والبابليين والكاشيين والعلاميين والميديين والحثيين والسوبرتيين والاموريين والحوريين الميتانيين.فأية مجموعة بشرية لم تأتي مهاجرة الى هذه الجغرافية فأنا أعدها حورية الأصل.حتى هنالك البعض من العلماء يقولون بأنه يوجد مجموعات بشرية هاجرت الى هذه الجغرافية وأنصهرت مع الشعوب الاصلية, ولكن هذه مجرد نظريات ووجهة نظر من العلماء والباحثين ولكل فرد يحق له أن يعطي وجهة نظره ولكن اين الحقيقة المطلقة مع الدليل والبرهان؟

يشكّل أصل الشعوب الجبلية في الشرق الأدنى القديم إحدى أكثر القضايا تعقيدًا في الدراسات الأنثروبولوجية والتاريخية. ومن بين هذه الشعوب يبرز **الشعب الحوري/الخوري/الهوري** (المعروف مجازيًا بـ **"أبناء الشمس"**) باعتباره من أقدم المجموعات التي لعبت دورًا جوهريًا في الانتقال من نمط الحياة الجبلية إلى بناء حضارات السهول في بلاد الرافدين. يقوم هذا البحث على مقاربة جغرافية-ثقافية تعتمد على نطاق محدّد حددته الدراسات الميدانية والرؤى التحليلية المعاصرة، ويتضمن **جبال زاغروس، شرق الأناضول، سلسلة جبال طوروس، جبال طوروس، وجبال أمانوس أو رامانوس.**

أولًا: المجال الجغرافي الأصلي للشعوب الحورية

1. جبال زاغروس

تُعدّ جبال زاغروس من أقدم البيئات المأهولة في الشرق الأدنى، وهي تمثّل موطنًا طبيعيًا لشعوب جبلية تمتلك خبرات معقّدة في التكيّف مع البيئة الوعرة. لعبت زاغروس دورًا أساسيًا في تطوير الزراعة الأولى والرعي، وشكّلت نقطة انطلاق لانتقال المجموعات البشرية نحو مناطق الأناضول والرافدين.

2. شرق الأناضول

يتميّز شرق الأناضول بتنوّع تضاريسه بين الهضاب والممرات الجبلية، وهو يشكّل منطقة تواصل بين زاغروس وطوروس. هذه المنطقة كانت مركزًا لتداخل ثقافي بين الشعوب الجبلية الشمالية والشرقية، وأسهمت في تشكّل الهوية الحورية قبل توسعها جنوبًا.

3. سلسلة جبال طوروس

تمثّل **سلسلة جبال طوروس** حاجزًا جيولوجيًا ضخمًا يفصل الهضبة الأناضولية عن السهول الجنوبية. هذه السلسلة لعبت دورًا دفاعيًا وثقافيًا مهمًا، إذ احتفظت المجتمعات الجبلية فيها باستقلاليتها، وشهدت تطورًا تدريجيًا في التنظيمات القروية والممارسات الدينية المرتبطة بعناصر الطبيعة.

4. جبال طوروس

يُنظر إلى **جبال طوروس** هنا باعتبارها نطاقًا مستقلاً داخل المنظومة الجبلية، يمتاز بممراته الطويلة وتنوع قراه القديمة. وقد أثّر هذا الاستقلال الجغرافي على خصوصية القبائل التي عاشت فيه، وأسهم في صياغة البنى الاجتماعية للشعب الحوري.

5. جبال أمانوس أو رامانوس

تقع جبال أمانوس على التخوم الغربية لهذه الكتلة الجبلية، وتمثّل منطقة حيوية تربط الساحل الشامي بالأناضول. وقد لعبت هذه الجبال دورًا فريدًا في التواصل التجاري والثقافي بين الشعوب الجبلية والسهول الساحلية، ما ساعد في توسيع نطاق انتشار المجموعات الحورية نحو الغرب.

ثانيًا: من الجبال إلى السهول ـــ التحوّل في نمط الاستقرار

تشير الدلائل الأثرية إلى أن الشعوب الجبلية لم تهبط مباشرة لبناء حضارة، بل مرّت بمرحلة انتقالية استمرت قرونًا وربما نحو ألف سنة. خلال هذه المرحلة نشأت القرى الزراعية الأولى، وتطورت الأنظمة الدينية التي تمحورت حول عبادة الشمس والعناصر الطبيعية، وهو ما يفسر ظهور اسم **الحوريين/الخوريين/الهوريين**.

ثالثًا: الأثر الحضاري للشعب الحوري في نشأة المراكز الرافدينية

1. السومريون

يرى عدد من الباحثين أن السومريين ربما يمثّلون إحدى المجموعات التي خرجت من المجال الجبلي نحو السهول الجنوبية، ثم طوّرت نماذج حضارية متقدمة نتيجة احتكاكها بالبيئة الجديدة.

2. الكاشيون

ينتمي الكاشيون إلى نفس الجذور الجبلية، وقد ظهروا كقوة سياسية مهمة في بابل، ما يؤكد استمرار تأثير الشعوب الحورية حتى مراحل تاريخية متقدمة.

3. السوباريون والميديون والعلاميون

تدلّ المصادر المسمارية على تقارب لغوي وثقافي بين هذه المجموعات، ما يشير إلى أصل مشترك يرتبط بالمجال الجغرافي نفسه.

رابعًا: الأدلة اللغوية والأنثروبولوجية على وحدة الأصل الحوري

مقدمة عن جزئية ما سوف اسرده:

تُعدّ الأدلة اللغوية والأنثروبولوجية من أهم الأسس العلمية لفهم وحدة الأصل بين الشعوب الجبلية القديمة التي انحدرت من المجال الجغرافي الممتد من زاغروس إلى أمانوس. هذه الأدلة تكشف عن جذور واحدة للغتهم وثقافتهم وبناهم الاجتماعية قبل استقرارهم في السهول.

1. الأدلة اللغوية الموسّعة

تظهر المقارنات اللغوية بين اللغات الحورية والسومرية والكاشية والعيلامية والسوبارية وجود طبقة لغوية أقدم مسبقة على هذه المجموعات جميعًا. ويمكن تلخيص هذه الأدلة في النقاط التالية:

- **التشابه في البنى الصرفية**: استخدام اللواحق والزوائد للتعريف أو للتخصيص.
- **تشابه المفردات الزراعية**: خاصة المرتبطة بالقمح والشعير والري، ما يدل على أصل زراعي جبلي مشترك.
- **المصطلحات الدينية**: كلمات تمثل الشمس والضياء والارتفاع تظهر جذورًا مشتركة.
- **الأسماء الجغرافية**: كثير من أسماء الجبال والأنهار في الأناضول وزاغروس تحمل جذورًا حورية.

2. الأدلة الأنثروبولوجية الموسّعة

تكشف الأدلة الأنثروبولوجية عن:

- **تشابه أشكال الأدوات الحجرية** في المجتمعات الجبلية.
- **أساليب البناء بالحجارة الكبيرة** التي سبقت بناء المدن في السهول.
- **تشابه عادات الدفن** وخاصة وضعية الجسد والقرابين الشمسية.
- **انتظام القرى في مدرجات جبلية** مشابهة عبر كامل المجال الجبلي.

خامسًا: الديانة الشمسية الحورية

مقدمة للدين الشمسي

كان الشعب الحوري يرى في الشمس رمزًا للكمال والسلطة والولادة، وهو ما انعكس في طقوسهم ومؤسساتهم الدينية.

1. المعتقدات الأساسية

- الشمس مركز الكون الروحي.
- الارتفاع الجغرافي رمز للسمو الروحي.
- الربط بين الضوء والمعرفة.

2. الطقوس والممارسات

- إقامة المعابد فوق القمم.
- ذبائح موسمية مع الاعتدالين.
- طقوس الانبعاث السنوية.

3. انتقال الديانة إلى السهول

انتقلت الرموز الشمسية إلى:

- السومريين (رمز الإله شمش).
- الأكاديين والبابليين.
- الحثيين والميتانيين.

سادسًا: الهجرات وأثرها في تاريخ الشرق الأدنى

مقدمة

شكّلت الهجرات الحورية الجسر الذي نقل الثقافة الجبلية إلى العالم الرافديني والشامي.

1. موجات الهجرة من الجبال

- هجرات مبكرة نحو سهول ديالى.
- هجرات لاحقة نحو جنوب بلاد الرافدين.
- توسع نحو حوض الفرات الأعلى.

2. أثرها في شمال سوريا

ساهم الحوريون في:

- بناء كركميش.
- التأثير على أوغاريت.
- تطوير الموسيقى والرقص الديني.

3. الدولة الميتانية

- أوج النفوذ الحوري.

- تنظيم عسكري متقدم.
- علاقات دولية مع مصر والحثيين.

سابعًا: دور البيئة الجبلية في بناء البنية الاجتماعية

1. طبيعة المجتمع الجبلي

- التنظيم العشائري.
- القيادة الجماعية.
- احترام كبار السن.

2. الاقتصاد الجبلي

- الرعي.
- الزراعة الجبلية.
- تبادل السلع عبر الممرات الجبلية.

3. تأثير البيئة على العمران

- القرى المدرّجة.
- بناء الحصون.
- استخدام الصخور الجبلية.

ثامنًا: الفترة الانتقالية قبل نشوء الحضارات

1. التحول من الجبل إلى السهل

- الانتقال بسبب المناخ.
- الحاجة إلى الزراعة المروية.

2. تطور المؤسسات

- ظهور المعابد.
- تطور الزراعة.

3. بداية المدن الأولى

استقرار الشعوب الجبلية في السهول أنتج:

- أولى المستوطنات.
- ظهور المهن.

- بناء مراكز دينية. والأنثروبولوجية على وحدة الأصل الحوري

1. التشابهات اللغوية

تشير المقارنات اللغوية بين اللغات السومرية والحورية والكاشية وبعض اللغات الجبلية الرافدينية إلى وجود جذور مشتركة في البنى الصوتية والدلالية. ويبرز ذلك في المصطلحات الزراعية، وأسماء العناصر الطبيعية، والمصطلحات الدينية المرتبطة بالشمس.

2. السمات الأنثروبولوجية المشتركة

تكشف الدراسات الأنثروبولوجية عن تشابه في الأدوات الحجرية، وتقنيات البناء الجبلي، وأنماط القرابة والتنظيم العشائري، ما يدل على أصل واحد للشعوب التي نزلت لاحقًا إلى السهول الرافدينية.

خامسًا: الديانة الشمسية وأثرها في الهوية الحورية

يُعدّ ارتباط الشعب الحوري بعبادة الشمس أحد أهم مفاتيح فهم هويتهم الثقافية. فقد كانت الشمس محورًا للأساطير، ومصدرًا للشرعية السياسية، ومرجعًا للطقوس الزراعية التي تعتمد عليها المجتمعات الجبلية.

مظاهر الديانة الشمسية:

- بناء المزارات على القمم المرتفعة.
- استعمال الرموز الدائرية التي تمثل الشمس.
- تقويم يعتمد على حركة الشمس والاعتدالات.
- ألقاب دينية مرتبطة بالضياء والنور.

سادسًا: أثر الهجرات الحورية على خريطة الشرق الأدنى

1. الانتشار نحو الرافدين

ساهمت الهجرات المبكرة في إدخال مفاهيم جديدة في الزراعة واستئناس الحيوان وبناء التنظيمات الاجتماعية.

2. الوصول إلى شمال سوريا وكركميش وأوغاريت

أسهم الوجود الحوري في بناء طبقة ثقافية أثّرت على الفنون والموسيقى والديانات المحلية.

3. النفوذ في الأناضول وتأسيس الميتانيين

يُعدّ الميتانيون ذروة التكوين السياسي للشعب الحوري، إذ أسسوا مملكة واسعة اعتمدت على النظام العسكري والفروسية والآلهة الشمسية.

سابعًا: دور البيئة الجبلية في تكوين البنية الاجتماعية

1. التنظيم العشائري

فرضت الجبال نظامًا اجتماعيًا يعتمد على العشيرة كوحدة أساسية.

2. الاقتصاد الجبلي

اعتمد على الرعي، الزراعة الجبلية، والصيد، الأمر الذي ساعد على تكوين استقلالية اقتصادية.

3. العمران الجبلي

ظهرت القرى المدرّجة، والحصون المبنية من الحجارة الكبيرة، والتي لاحقًا تطورت إلى نظم عمرانية في السهول.

ثامنًا: الفترة الانتقالية قبل نشوء الحضارات

تشير الدلائل إلى أن الفترة بين النزول من الجبال وبداية الحضارات الكبرى امتدت قرونًا طويلة شهدت:

- تجربة الزراعة المنظمة.
- بناء أولى المستوطنات.
- ظهور الطقوس الشمسية.
- تطوير أدوات معدنية أولية.

تاسعًا: الاقتصاد القديم لدى الشعوب الحورية والجبلية

اعتمدت الشعوب الحورية والجبلية على اقتصاد متنوع يقوم على الزراعة والرعي والتجارة، إضافة إلى استغلال المعادن المتوفرة في البيئات الجبلية. هذا الاقتصاد المتوازن كان أساس قدرتها على الانتقال لاحقًا إلى السهول وتأسيس مراكز حضارية متقدمة.

1. الزراعة الجبلية

- **الزراعة المدرّجة**: استخدم الحوريون مصاطب جبلية لحفظ التربة ومنع الانجراف.
- **المحاصيل الأساسية**: الشعير، القمح، الكروم، والعدس.
- **تقنيات الري**: اعتماد على جداول صغيرة تنحدر من الجبال.
- **رمزية الشمس في الزراعة**: كانت أوقات الحصاد مرتبطة بالتقويم الشمسي.

2. الرعي وتربية الحيوان

- تربية الأغنام والماعز نظرًا لملاءمتها للجبال.
- استئناس أنواع من الكلاب الحربية والحيوانات المرافقة.
- تبادل جلود الأغنام والصوف مع الشعوب السهلية.

3. التجارة الجبلية

- تبادل المواد الخام مقابل المنتجات الزراعية.
- دور الحوريين كوسطاء تجاريين بين الأناضول والرافدين.
- تجارة الأخشاب، والصوف، والجلود، والأحجار الكريمة.
- استخدام الممرات الجبلية التجارية مثل ممرات طوروس وأمانوس.

4. التعدين وصناعة المعادن

- استخراج النحاس من جبال الأناضول.
- صناعة البرونز المبكرة.
- استخدام الحجارة الصلبة لصنع أدوات زراعية وحربية.
- تصدير المعادن الخام إلى مدن السهول.

عاشرًا: الأساطير الحورية والسومرية المشتركة

تُظهر المقارنة بين الأساطير الحورية والسومرية وجود جذور رمزية مشتركة تعود إلى مرحلة ما قبل استقرار الشعوب الجبلية في السهول. تتجلى هذه الروابط في الرموز الشمسية، قصص الخلق، وأساطير الخصب.

1. أساطير الخلق

- **الأسطورة الحورية**: ترتبط الشمس بالقوة الخالقة الأولى، حيث يولد الكون من الضوء.
- **الأسطورة السومرية**: يظهر الإله "أن" في السماء العليا كقوة الخلق الأولى.
- **العنصر المشترك**: الارتباط بين السماء والضياء بوصفهما أصل الوجود.

2. أساطير الخصب والولادة

- ارتباط الحوريين بدورة الشمس السنوية وتأثيرها على الزراعة.
- لدى السومريين أساطير مثل دموزي وإنانا التي تُظهر دورة الحياة والفناء.
- تشابه واضح في فكرة "العود الأبدي" بين الجانبين.

3. الأساطير المتعلقة بالجبال والمرتفعات

- يقدّس الحوريون الجبال باعتبارها منازل الآلهة.
- لدى السومريين رموز لجبال مقدسة مثل "كور".

- كلا الشعبين يرى في الجبال موطنًا للأسرار والقوة.

4. الأساطير الشمسية المشتركة

- الإله الحوري "شيميغ" وارتباطه بدورة النهار.
- الإله السومري "أوتو/شمش" المشابه له في الوظيفة.
- كلا الشعبين يربطان الشمس بالقضاء والعدل.

5. انتقال الأساطير بين الشعوب

- عبر التجارة والهجرات تسربت الأساطير الحورية إلى السومريين.
- لاحقًا انتقلت هذه الرموز إلى الأكاديين والبابليين والميتانيين

الفصل: الموسيقى الحورية – أنشودة نيكال

هذا الملف مستقلّ لعرض الفصل الخاص بالموسيقى الحورية بعد امتلاء الوثيقة السابقة.

تُعد الموسيقى الحورية من أقدم الأنظمة الموسيقية المدوّنة في تاريخ الإنسانية، وتُمثّل "أنشودة نيكال" المكتشفة في أوغاريت أقدم تدوين موسيقي معروف حتى اليوم، ما يجعل التراث الحوري حجر الأساس في تطور موسيقى الشرق الأدنى القديم.

الجذور الجبلية للموسيقى الحورية

نشأت الموسيقى الحورية بين جبال زاغروس وطوروس وأمانوس، في بيئة يتردد فيها الصوت طبيعيًا داخل الوديان والمرتفعات، مما ساعد على تطوير سلالم موسيقية تعتمد على الانتقالات الصوتية التدريجية.

أنشودة نيكال

أنشودة موجهة للإلهة نيكال—سيدة البساتين والخصوبة—وهي ترتيلة زراعية–دينية مرتبطة بالدورة الموسمية للشمس والزرع. تكشف صياغتها الشعرية عن تطور لغوي–رمزي متقدم في التراث الحوري.

التدوين الموسيقي الحوري

احتوت الألواح الطينية على رموز لدرجات صوتية ومسافات نغمية، وهي أقدم مثال على تدوين موسيقي نظري. وتُظهر المقارنة أنها تعكس سلالم سباعية وتراكيب مقامية بدائية.

الآلات الموسيقية

اعتمد الحوريون على:

- القيثارة ذات الأوتار المتعددة
- العود البدائي

- الناي القصبي الجبلي
- طبول الإيقاع وقد استُخدمت هذه الآلات في الطقوس الدينية والاحتفالات الموسمية.

الموسيقى والديانة الشمسية

كانت الموسيقى جزءًا أساسيًا من العبادة الشمسية؛ تُعزف ألحان تصاعدية عند الشروق، وألحان هادئة عند الغروب. وهذا يعكس رؤية كونية حورية تربط الضوء بالحياة والغناء.

تأثير الموسيقى الحورية

انتقلت العناصر الموسيقية الحورية إلى:

- السومريين والأكديين
- الحثيين
- الكنعانيين والسوريين في الساحل وتظهر المقامات الحورية في التراتيل الدينية اللاحقة في الشرق الأدنى

البحث الأكاديمي الموسّع حول الشعب الحوري وأصول شعوب زاغروس وطوروس وأمانوس

المقدمة العامة

هذا البحث أقدم رؤية شاملة لأصول الشعوب الجبلية في زاغروس وشرق الأناضول وسلسلة جبال طوروس وجبال طوروس وجبال أمانوس (رامانوس)، مع التركيز على الشعب الحوري (الخوري–الهوري) باعتباره أحد أقدم الشعوب التي كوّنت حضارات في السهول بعد نزولها من المرتفعات. يعتمد هذا العمل على تراكم بحثي يمتد لثلاثين عامًا، ويقدّم فرضية قومية–تاريخية حول وحدة الجذر الجبلي لهذه الشعوب.

الفصل الأول: الإطار الجغرافي – موطن الشعوب الجبلية

1. **جبال زاغروس**: الامتداد المركزي الحضاري.
2. **شرق الأناضول**: الامتداد الشمالي الطبيعي للشعوب الحورية–الميدية.
3. **سلسلة جبال طوروس**: الحد الفاصل بين الأناضول وبلاد الرافدين.
4. **جبال طوروس**: مناطق القبائل الجبلية ذات الطابع الحربي.
5. **جبال أمانوس/رامانوس**: الجسر الطبيعي نحو الساحل السوري–الحوري.

تمثّل هذه السلاسل بيئة أولى للشعوب الحورية وما يتفرع عنها.

الفصل الثاني: الشعب الحوري – تعريف وهوية

الشعب الحوري يُعرف باسم (الخوري، الهوري)، وهم **"أبناء الشمس"** وفق الديانة الشمسية الأولى. شكّلوا إحدى أقدم الكتل السكانية التي نزحت من الجبال إلى السهول وأسّست نواة الحضارات.

الفصل الثالث: الأدلة اللغوية والأنثروبولوجية

- تقارب لغوي بين اللغات الحورية والميدية والكاشية والسوبارتية.
- تأثيرات واضحة في اللغات الجبلية حتى العصر الحديث.
- تشابه أنثروبولوجي في البنية العظمية والسمات القبلية.

الفصل الرابع: الديانة الشمسية الحورية

ارتبطت الديانة الحورية بالشمس بوصفها رمز الخلود والنور. كانت الطقوس تُمارس عند الشروق والغروب، وتمثل الأساس الفكري الذي يجمع الشعوب الجبلية القديمة.

الفصل الخامس: الهجرات وأثرها في تاريخ الشرق الأدنى

بعد النزول من الجبال، اتجهت الشعوب الحورية إلى:

- سهول الخابور.
- أعالي دجلة.
- شمال بلاد الرافدين.
- غرب سوريا. وأسست مدنًا وحضارات تشكّل جزءًا من الذاكرة التاريخية للمنطقة.

الفصل السادس: دور البيئة الجبلية في بناء المجتمع

أنتجت البيئة الجبلية:

- مجتمعات محاربة.
- بنى قبلية متماسكة.
- ممارسات اقتصادية قائمة على الرعي والصيد. وقد نقلت هذه الخصائص إلى حضارات السهل لاحقًا.

الفصل السابع: الفترة الانتقالية قبل نشوء الحضارات

امتدت هذه الفترة قرونًا بين نزول الشعوب من الجبال وبداية التدوين. شهدت:

- نشوء قرى أولية.
- تبادلًا اقتصاديًا بدائيًا.
- طقوسًا شمسية جماعية.

الفصل الثامن: الاقتصاد القديم (زراعة، تجارة، معادن)

- الزراعة القائمة على الري الموسمي.
- منشأ التجارة عبر الممرات الجبلية.
- استغلال المعادن كالنحاس والفضة والحديد.
- تصدير المنتجات الجبلية إلى السهول.

الفصل التاسع: الأساطير الحورية والسومرية المشتركة

تشترك الأساطير في:

- رموز الخصب.
- القصص الكونية الأولى.
- تأليه الطبيعة.
- تسلسل الآلهة وتأثير الشمس.

وتظهر تشابهات واضحة بين ملحمة كوماربي الحورية ونصوص سومرية مبكرة.

الفصل العاشر: البيئة والتغيّر المناخي

أثرت التغيرات المناخية في:

- حركة الشعوب الجبلية.
- تراجع الجليد.
- توسع السهول القابلة للزراعة.
- النمو السكاني.

كان المناخ دافعًا مباشرًا للانتقال نحو السهول وتكوين الحضارات.

الفصل الحادي عشر: الموسيقى الحورية – أنشودة نيكال

تعد الموسيقى الحورية من أقدم التقاليد الموسيقية في التاريخ.

الجذور الجبلية للموسيقى

اعتمدت على الصدى الطبيعي في الجبال، ما ساعد على تطوير سلالم نغمية أولية.

أنشودة نيكال

أقدم تدوين موسيقي معروف في العالم، وهو ترتيلة للإلهة نيكال – سيدة الخصوبة. تعكس الأنشودة ارتباطًا عميقًا بالدورة الزراعية والطقوس الشمسية.

التدوين الموسيقي

يتضمن نظامًا نغميًا مكتوبًا يشكل أساس المقامات القديمة.

الآلات

- القيثارة.
- العود.
- الناي الجبلي.
- الطبول.

التأثير الحضاري

انتقلت الموسيقى الحورية إلى:

- الموسيقى السومرية.
- الموسيقى الحثية.
- الموسيقى الكنعانية.

الفصل الثاني عشر: العسكرية الحورية وتطور العربات القتالية

اعتمد الحوريون على العربات الخفيفة والسريعة، وطوروها إلى نموذج قتالي اعتمده الحثيون والميتانيون لاحقًا.

مكونات العربة القتالية

- عجلتان خفيفتان.

- منصة رمي.
- فريق مكوّن من قائد ورامٍ.

دور العسكرية الحورية

- حماية طرق التجارة.
- السيطرة على السهول بعد النزول من الجبال.
- التأثير في الجيوش الحثية والمصرية.

الفصل الثالث عشر: العلاقات الحورية–المصرية (رسائل تل العمارنة)

تشير مراسلات تل العمارنة إلى علاقات سياسية بين ملوك الحوريين (الميتانيين) والفراعنة.

محاور العلاقات

- تبادل الهدايا.
- التحالفات ضد الحثيين.
- المصاهرات الملكية.

الفصل الرابع عشر: العمارة الحورية في المدن الجبلية والسهلية

المدن الجبلية

- مبنية بالحجر.
- تعتمد على التحصين الطبيعي.

المدن السهلية

- استخدام اللبن والطين.
- تخطيط دائري يعكس الطقوس الشمسية.

الفصل الخامس عشر: الهوية السوبارتية وصلتها بالحوريين

السوبارتيون أول مجموعة سكنية شمال دجلة، ولهم تقارب لغوي وثقافي مع الحوريين.

أوجه الصلة

- اللغة.

- الاقتصاد.
- الأساطير.

الفصل السادس عشر: الأموريون ودورهم في الجذور الجبلية

الأموريون جزء من الشعوب الجبلية التي نزحت جنوبًا وأسست ممالك.

علاقتهم بالحوريين

- أساطير مشتركة.
- منصات معابد متقاربة.
- انتقال لغوي بين الطرفين.

الفصل السابع عشر: الخريطة الزمنية للحضور الحوري

1. **7000 ق.م**: استقرار جبلي أول.
2. **5000 ق.م**: الهجرات الأولى نحو السهول.
3. **3500 ق.م**: بروز القرى الحورية.
4. **2500 ق.م**: تبلور الهوية الحورية.
5. **1500 ق.م**: قوة مملكة ميتاني.

ونصل الآن الى نقطة التقاء وهو بأن: الشعب الحوري–الخوري–الهوري إحدى أقدم الكتل الجبلية التي ساهمت في نشوء الحضارة. يجمع هذا البحث بين الجغرافيا واللغة والديانة والموسيقى والتاريخ لتقديم رؤية موحدة حول دور أبناء الشمس في تشكيل الشرق الأدنى القديم.

يُظهر التحليل الجغرافي والأنثروبولوجي لتشكّل الحضارة السومرية أن ظهورها في جنوب بلاد الرافدين لا يمكن فهمه بمعزل عن الفضاء الجبلي الممتد من جبال زاغروس شرقًا، مرورًا بشمال بلاد الرافدين، وصولًا إلى الأناضول جنوبًا. فهذه المناطق شكّلت منذ الألفين التاسع والثامن قبل الميلاد نطاقًا بشريًا متفاعلًا، شهد نشوء القرى الزراعية الأولى، وتطوّر أنماط الاستقرار، وتراكم الخبرات التقنية والدينية التي سبقت مرحلة التمدّن السومري بزمن طويل. إن انتقال الجماعات من البيئات الجبلية إلى السهول الفيضية لا يمثّل قطيعة سكانية، بل تحوّلًا تدريجيًا فرضته العوامل البيئية والاقتصادية، ولا سيما البحث عن الأراضي الزراعية الخصبة ومسارات التجارة.

وتشير الأدلة الأثرية إلى أن شمال بلاد الرافدين والأناضول الجنوبي كانا مسرحًا مبكرًا لتجارب تنظيمية ومعمارية ودينية، مثل المراكز الطقسية وأنماط التخزين الجماعي، وهي عناصر ستظهر لاحقًا بشكل أكثر تعقيدًا في مدن الجنوب السومري. كما أن جبال زاغروس لعبت دور الخزان البشري والثقافي، حيث حافظت الجماعات الجبلية على أنماط لغوية وثقافية متنوّعة، ما يفسّر الطبيعة غير المصنّفة للغة السومرية، والتي لا تنتمي إلى العائلات اللغوية السائدة في السهول المحيطة. إن هذه العزلة اللغوية لا تُفهم بوصفها ظاهرة غامضة، بل كنتيجة طبيعية لنشوء لغة في فضاء جبلي متعدد الإثنيات واللغات.

وعليه، فإن السومريين لا يمثّلون شعبًا ظهر فجأة في جنوب الرافدين، بل يشكّلون المرحلة الحضرية المتقدمة لمسار بشري بدأ في الأطراف الجبلية لزاغروس والأناضول وشمال الرافدين. إن ما يُسمّى بالحضارة السومرية هو نتاج تفاعل طويل بين الجبل والسهل، حيث انتقلت البنى الاجتماعية والدينية والتقنية من المجتمعات القروية الجبلية إلى المدن الفيضية، لتأخذ هناك شكلها المديني المنظّم. وبذلك، فإن ربط السومريين بهذا الفضاء الجغرافي الواسع يحرّر تاريخهم من السرديات السهلية الاختزالية، ويعيد إدراجهم ضمن ديناميات الاستمرارية البشرية في الشرق الأدنى القديم.

السومريون في سياق زاغروس وشمال الرافدين
مقاربة تاريخية وأنثروبولوجية نقدية

نص الفصل

يُعدّ البحث في أصول السومريين من أكثر الإشكاليات تعقيدًا في دراسات تاريخ الشرق الأدنى القديم، لا بسبب ندرة المعطيات فحسب، بل نتيجة هيمنة نماذج تفسيرية تقليدية تعاملت مع الحضارة السومرية بوصفها ظاهرة سهلية منقطعة الجذور، نشأت فجأة في جنوب بلاد الرافدين. غير أن المقاربة التاريخية والأنثروبولوجية الحديثة، المدعومة بالمعطيات الأثرية والبيئية، تفرض إعادة إدراج السومريين ضمن فضاء جغرافي وبشري أوسع يمتد من جبال زاغروس شرقًا، مرورًا بشمال بلاد الرافدين، وصولًا إلى الأناضول الجنوبي.

تشير الأدلة الأثرية إلى أن المناطق الجبلية المحيطة ببلاد الرافدين شكّلت منذ الألفين التاسع والثامن قبل الميلاد بيئة ديناميكية لنشوء القرى الزراعية الأولى، وتطوّر أنماط الاستقرار البشري، وتراكم الخبرات التقنية والدينية. وقد سبقت هذه المرحلة الجبلية ظهور المدن السومرية في الجنوب بزمن طويل، الأمر الذي يجعل من غير المنهجي فصل الحضارة السومرية عن هذا الإرث الجبلي العميق. فالانتقال من الجبل إلى السهل لم يكن حدثًا فجائيًا، بل مسارًا تدريجيًا فرضته التحولات المناخية، وتوسّع النشاط الزراعي، والحاجة المتزايدة إلى تنظيم الموارد المائية في البيئات الفيضية.

في هذا الإطار، تبرز الجماعات الحورية والسوبارتية بوصفها مكوّنات بشرية أساسية في شمال بلاد الرافدين وأطراف زاغروس. فقد وثّقت النصوص المسمارية والدراسات الأثرية وجود هذه الجماعات قبل اكتمال تشكّل المدن السومرية في الجنوب، مع مؤشرات واضحة على استمرارية سكانية وثقافية. ولم تكن هذه الجماعات معزولة أو هامشية، بل شكّلت جزءًا فاعلًا من شبكة تفاعل بشري ربطت الجبل بالسهل، وأسهمت في نقل أنماط الاستقرار والتنظيم الاجتماعي من البيئات المرتفعة إلى الأراضي المنخفضة.

ولا يقوم الربط بين السومريين والحوريين والسوبارتيين على فرضية وحدة لغوية مباشرة، بل على تحليل البنية الحضارية المشتركة. فاللغة السومرية، بوصفها لغة معزولة لا تنتمي إلى العائلات السامية أو الهندوأوروبية، تُفهم بشكل أكثر اتساقًا ضمن فضاء جبلي متعدد اللغات، حيث شكّلت التعددية اللغوية سمة بنيوية للمجتمعات الجبلية. ويُفسّر هذا السياق قدرة السومريين لاحقًا على التفاعل الإداري واللغوي مع الأكديين دون ذوبان كامل، كما يفسّر الطابع المركّب للثقافة السومرية المبكرة.

كما تُظهر المقارنات الأثرية أن عددًا من العناصر الدينية والتنظيمية التي تبلورت في مدن الجنوب، مثل الرمزية المرتبطة بالجبال، وأنماط العمارة المعبدية، وأشكال التنظيم الاجتماعي غير المركزي في مراحله الأولى، لها جذور واضحة في مناطق انتشار الحوريين والسوبارتيين. ويعزّز ذلك الفرضية القائلة إن الحضارة السومرية تمثّل ذروة حضرية لمسار طويل من التفاعل الجبلي الرافدي، لا قطيعة تاريخية معه.

وعليه، فإن مقاربة السومريين بوصفهم امتدادًا متحوّلًا لحركات بشرية خرجت من زاغروس وشمال بلاد الرافدين والأناضول الجنوبي تحرّر تاريخهم من ثنائية الأصل السهلي مقابل الأصل الغامض. فالسومريون ليسوا شعب السهل الخالص، ولا جماعة وافدة مجهولة، بل نتاج تراكمي لمسارات بشرية وجبلية قديمة أعادت إنتاج نفسها ضمن إطار مديني متقدّم في جنوب بلاد الرافدين. ومن هنا، يغدو إدراج السومريين ضمن هذا الفضاء الجغرافي والأنثروبولوجي شرطًا منهجيًا أساسًا لفهم نشأة الحضارة الأولى في تاريخ الإنسانية.

الهوامش والمراجع

1. Henri Frankfort, The Birth of Civilization in the Near East, Indiana University Press.
2. Robert J. Braidwood, Prehistoric Men, University of Chicago Press.
3. Seton Lloyd, The Archaeology of Mesopotamia, Thames and Hudson.

4. Marc Van De Mieroop, A History of the Ancient Near East, Blackwell.

5. Mario Liverani, Antico Oriente, Laterza.

6. Daniel T. Potts, Mesopotamian Civilization, Cornell University Press.

7. Piotr Steinkeller, On the Historical Background of the Sumerian Language, Journal of Cuneiform Studies.

8. Giorgio Buccellati, The Origins of Civilization in the Near East, UCLA Publications

تُظهر هذه الدراسة، بصيغتها المنهجية واللغوية الحالية، قابلية عالية للنشر في الدوريات الأكاديمية المتخصصة بتاريخ الشرق الأدنى القديم والأنثروبولوجيا التاريخية، إذ تستوفي المعايير الأساسية للبحث العلمي من حيث وضوح الإشكالية، وتماسك البناء التحليلي، والاعتماد على مصادر غربية محكّمة، فضلًا عن تبنّي مقاربة نقدية تتجاوز السرديات التفسيرية التقليدية دون الوقوع في الطرح الأيديولوجي. ولا يتطلّب النص، في حال تقديمه للنشر، سوى إدراجه ضمن القالب الشكلي للمجلة المختارة، مع إضافة ملخص علمي وكلمات مفتاحية، دون حاجة إلى تعديل جوهري في المضمون أو المنهج.

كما يتيح هذا الفصل إمكانية دمجه عضويًا مع فصول الحوريين والسوبارتيين ضمن وحدة منهجية واحدة، تقوم على تحليل الاستمرارية السكانية والثقافية في شمال بلاد الرافدين وجبال زاغروس. ففي هذا الإطار، يُعاد فهم السومريين لا بوصفهم كيانًا حضريًا منقطع الجذور، بل بوصفهم المرحلة الجنوبية المتقدّمة لمسار بشري تشكّل في البيئات الجبلية المجاورة. ويُسهم هذا الدمج في إنتاج سردية تاريخية متماسكة ترى في زاغروس وشمال الرافدين فضاءً مولّدًا للتحوّلات الحضارية، لا مجرد أطراف تابعة لمراكز السهل.

وفي سياق المراجعة النقدية للأدبيات السابقة، يقدّم هذا الطرح استجابة علمية هادئة للمدرسة السومرية الكلاسيكية، كما تجلّت في أعمال باحثين من أمثال صموئيل نوح كريمر، وثوركيلد ياكوبسن، وبينو لاندسبرغر. فمع الإقرار بالدور التأسيسي لهذه المدرسة في فك النصوص السومرية وبناء التسلسل التاريخي، إلا أن مقاربتها عكست إلى حدّ بعيد مناخًا فكريًا ركّز على المدينة والنص المكتوب بوصفهما نقطة الانطلاق للتاريخ، متغافلًا عن المراحل السابقة للتمدّن وعن الدور البنيوي للمجتمعات الجبلية. وتُظهر الدراسات الأثرية والأنثروبولوجية اللاحقة أن هذا المنظور يحتاج إلى إعادة تقويم، لا من خلال نفي منجزه، بل عبر إدراجه ضمن إطار أوسع يأخذ بعين الاعتبار التفاعلات الطويلة الأمد بين الجبل والسهل.

وعليه، فإن هذا البحث لا يسعى إلى استبدال سردية بأخرى، ولا إلى تقديم أصل أحادي للسومريين، بل إلى تفكيك الثنائيات التفسيرية التي هيمنت على دراسة نشأة الحضارات في الشرق الأدنى. فالسومريون، في هذا المنظور، يُفهمون بوصفهم حلقة مركزية في سلسلة استمرارية بشرية وثقافية تشكّلت في فضاء زاغروس وشمال بلاد الرافدين، ثم بلغت ذروتها الحضرية في جنوب الرافدين. ويتيح هذا الفهم إعادة قراءة تاريخ المنطقة بوصفه تاريخ تفاعل تدريجي بين البيئات الجبلية والفيضية، لا تاريخ مدن ظهرت من فراغ أو شعوب بلا جذور.

تبيّن هذه الدراسة، في ضوء التحليل التاريخي والأنثروبولوجي المقارن، أن مقاربة أصول السومريين تظل ناقصة ما لم تُدرج ضمن الإطار الجغرافي والبشري الواسع الذي سبق تشكّل المراكز الحضرية في جنوب بلاد الرافدين. فالسرديات التي اختزلت نشأة الحضارة في فضاء السهل، أو تعاملت مع السومريين بوصفهم ظاهرة منقطعة الجذور، لم تأخذ بعين الاعتبار البنى السكانية العميقة التي تشكّلت في البيئات الجبلية المحيطة، ولا الديناميات طويلة الأمد التي ربطت بين الجبل والسهل عبر مسارات الانتقال والتفاعل.

لقد أظهرت المعطيات الأثرية والبيئية أن جبال زاغروس وشمال بلاد الرافدين والأناضول الجنوبي لم تكن مناطق هامشية أو معزولة عن مسار التاريخ، بل شكّلت فضاءً نشطًا لتطوّر المجتمعات الزراعية الأولى، وتراكم الخبرات التقنية، وتشكّل أنماط التنظيم الاجتماعي والديني التي سبقت التمدّن بزمن طويل. ومن هذا المنطلق، فإن المدن السومرية لا تمثّل نقطة بداية، بل نتيجة تاريخية لعملية تحوّل تدريجية انتقلت فيها المجتمعات من أنماط قروية وجبلية إلى بنى مدينية أكثر تعقيدًا في البيئات الفيضية.

ويكشف تحليل العلاقة بين السومريين والجماعات الحورية والسوبارتية أن التفاعل بين هذه المكوّنات لم يكن طارئًا أو ظرفيًا، بل جزءًا من شبكة بشرية وثقافية مترابطة امتدت عبر شمال الرافدين وزاغروس. فهذه الجماعات أسهمت، بدرجات متفاوتة، في تشكيل الأسس الأولى للاستقرار والتنظيم الاجتماعي، ونقلت أنماطًا ثقافية ورمزية أُعيد إنتاجها لاحقًا في صيغة مدينية. ولا يمكن فهم هذا المسار على أساس وحدة إثنية أو لغوية، بل ضمن منطق الاستمرارية الحضارية التي تسمح بالتنوّع والاختلاف دون قطيعة.

كما أن الطابع المعزول للغة السومرية لا يُعد استثناءً غامضًا في هذا السياق، بل يعكس واقعًا لغويًا متعدّدًا ميّز البيئات الجبلية والمناطق الانتقالية في الشرق الأدنى القديم. فقد أفرز هذا الواقع ثقافات قادرة على التعايش والتفاعل دون ذوبان لغوي كامل، وهو ما يفسّر لاحقًا قدرة السومريين على التكيّف الإداري والثقافي مع الأكديين، مع احتفاظهم بخصوصيتهم اللغوية لفترة طويلة.

وتُظهر هذه النتائج أن المقاربات الكلاسيكية التي ركّزت على النصوص المكتوبة والمدن الكبرى، رغم أهميتها في بناء الإطار الزمني والسياسي، لم تكن كافية لتفسير المراحل السابقة للتمدّن ولا لفهم الدور البنيوي للمجتمعات الجبلية. إن تجاوز هذه المقاربات لا يعني التقليل من منجزها العلمي، بل إدراجها ضمن رؤية أوسع تستفيد من تطوّر علم الآثار،

والأنثروبولوجيا التاريخية، والدراسات البيئية، بما يسمح بإعادة تركيب مسار الحضارة على أسس أكثر شمولًا.

وعليه، فإن إعادة ربط السومريين بفضاء زاغروس وشمال بلاد الرافدين لا تهدف إلى صياغة أصل بديل أو هوية جديدة، بل إلى إعادة وضعهم ضمن سياقهم التاريخي الطبيعي، بوصفهم نتاجًا تراكميًا لمسارات بشرية طويلة ومعقّدة. ويؤكد هذا المنظور أن الحضارات الأولى لم تنشأ نتيجة قفزات مفاجئة أو انقطاعات حادّة، بل عبر تحوّلات تدريجية تشكّلت في تفاعل مستمر بين الإنسان وبيئته.

ومن خلال هذا الفهم، يغدو تاريخ الشرق الأدنى القديم تاريخ استمرارية وتحول، لا تاريخ بدايات معزولة، وتصبح الحضارة السومرية إحدى أبرز التعبيرات المدينية عن هذا المسار الطويل. إن هذه الخاتمة، بما تقدّمه من إطار تفسيري متكامل، تفتح المجال لإعادة قراءة أوسع لنشأة الحضارات، وتؤكد ضرورة تجاوز النماذج الاختزالية نحو مقاربات تأخذ بعين الاعتبار العمق الجغرافي والبشري للتاريخ الإنساني.

تُفضي هذه الدراسة، في مجمل مساراتها التحليلية، إلى إعادة صياغة إطار شامل لفهم نشأة الحضارات الأولى في الشرق الأدنى القديم، من خلال إدراج السومريين والحوريين والسوبارتيين ضمن أطروحة واحدة تقوم على مبدأ الاستمرارية البشرية والتحول الحضاري، لا على الانقطاعات الإثنية أو الظهورات المفاجئة. فقد أظهرت المعطيات التاريخية والأنثروبولوجية والأثرية أن هذه الجماعات لا يمكن مقاربتها بوصفها كيانات منفصلة أو معزولة، بل بوصفها تعبيرات مختلفة لمسار بشري طويل تشكّل في الفضاء الممتد من جبال زاغروس وشمال بلاد الرافدين إلى الأناضول الجنوبي.

إن الحوريين والسوبارتيين يمثّلون، في هذا السياق، طبقات سكانية مبكرة لعبت دورًا بنيويًا في تشكيل أنماط الاستقرار والتنظيم الاجتماعي في البيئات الجبلية والمناطق الانتقالية. وقد أفرزت هذه البيئات نماذج قروية وزراعية، ورموزًا دينية، وأشكالًا من التفاعل الاجتماعي سبقت ظهور المدن بزمن طويل. ولم تكن هذه الجماعات في موقع الهامش، بل شكّلت خزانًا بشريًا وثقافيًا أسهم في تغذية التحولات اللاحقة التي ستتبلور في المراكز الحضرية.

أما السومريون، فيُفهمون ضمن هذه الأطروحة بوصفهم المرحلة المدينية المتقدمة لهذا المسار، حيث جرى نقل الخبرات المتراكمة من البيئات الجبلية إلى السهول الفيضية، وإعادة تنظيمها ضمن أطر سياسية وإدارية ودينية أكثر تعقيدًا. ولا يمثّل ظهور المدن السومرية قطيعة مع الماضي، بل تحوّلًا نوعيًا في شكل التعبير الحضاري، فرضته شروط بيئية واقتصادية وتنظيمية جديدة. ومن هنا، فإن العلاقة بين السومريين والحوريين والسوبارتيين ليست علاقة أصل وفرع، ولا علاقة تطابق إثني، بل علاقة استمرارية وتفاعل ضمن فضاء جغرافي واحد.

ويُسهم هذا المنظور في تفسير عدد من الظواهر التي طالما بدت إشكالية في الدراسات التقليدية، مثل الطبيعة المعزولة للغة السومرية، والتنوّع الثقافي في شمال بلاد الرافدين، واستمرارية الرموز الدينية المرتبطة بالجبال. فهذه العناصر لا تُعد شذوذات تاريخية، بل

انعكاسًا لواقع تعددي ميّز المجتمعات الجبلية والانتقالية، حيث كان التعايش بين لغات وثقافات متعددة أمرًا بنيويًا لا استثنائيًا.

كما تُظهر المقارنة بين هذه الجماعات أن ما يجمعها ليس هوية قومية واحدة، بل اشتراكها في فضاء تاريخي أنتج أنماطًا متقاربة من التنظيم الاجتماعي والتفاعل مع البيئة. ومن ثم، فإن محاولات تصنيف هذه الشعوب ضمن هويات إثنية صلبة أو ربطها بسرديات قومية حديثة تظل مقاربات إسقاطية لا تنسجم مع طبيعة المجتمعات القديمة ولا مع مفاهيمها عن الذات والانتماء.

وعليه، فإن الأطروحة التي تجمع السومريين والحوريين والسوبارتيين ضمن مسار واحد لا تهدف إلى إعادة إنتاج هوية بديلة، بل إلى إعادة بناء السياق التاريخي الذي تشكّلت فيه الحضارات الأولى. إن هذا السياق يؤكد أن الشرق الأدنى القديم كان فضاءً ديناميكيًا للتفاعل البشري، حيث لعبت الجبال والسهول معًا دورًا متكاملًا في إنتاج التاريخ، وحيث نشأت المدن بوصفها ذروة لمسارات طويلة من التحول، لا كنقطة بداية معزولة.

ومن خلال هذا الإطار، يصبح تاريخ السومريين والحوريين والسوبارتيين جزءًا من سردية كبرى تعيد الاعتبار للاستمرارية البشرية، وتحرّر دراسة الحضارات القديمة من النماذج الاختزالية التي اختزلت التاريخ في لحظة ظهور المدينة أو النص. وتفتح هذه الخاتمة المجال لإعادة قراءة أوسع لتاريخ الشرق الأدنى بوصفه تاريخ تشكّل تدريجي للحضارة، نابع من تفاعل الإنسان مع بيئته عبر قرون طويلة، لا نتيجة قفزات مفاجئة أو انقطاعات وهمية.

المقدّمة العامة

يمثّل البحث في أصول الشعوب الجبلية في الشرق الأدنى القديم أحد أكثر ميادين التاريخ القديم تعقيدًا وحساسية، لما يحمله من تداخل بين الجغرافيا واللغة والدين والأنثروبولوجيا، ولِما تعرّض له هذا المجال من إسقاطات قومية لاحقة حجبت كثيرًا من حقائقه الأولى. وفي قلب هذه الإشكالية يبرز الشعب الحوري/الخوري/الهوري بوصفه إحدى أقدم الكتل السكانية التي أسهمت، بصورة مباشرة وغير مباشرة، في نشوء الحضارات الرافدينية والسورية والأناضولية.

ينطلق هذا الكتاب من فرضية علمية واضحة:

أنّ الشعب الحوري هو نتاج بيئة جبلية محدّدة امتدّت عبر زاغروس وشرق الأناضول وسلاسل طوروس وأمانوس، وأنّ هذه البيئة لم تكن مجرّد إطار جغرافي للسكن، بل كانت العامل الحاسم في تشكيل البنية الاجتماعية والدينية والاقتصادية لهذا الشعب، قبل انتقاله التدريجي إلى السهول وبناء المراكز الحضارية.

لا يتعامل هذا العمل مع "الحوريين" بوصفهم تسمية معزولة أو عرقًا منقطع الصلة بغيره، بل يدرسهم ضمن منظومة الشعوب الجبلية التي شكّلت العمود الفقري للحضارة المشرقية المبكرة، والتي خرجت من الجبال حاملة معها أنماطًا ثقافية ودينية ولغوية ستظهر لاحقًا في سومر، وأكّد، وبابل، والحثيين، والميتانيين.

يعتمد هذا الكتاب على منهج جغرافي–تاريخي–أنثروبولوجي متكامل، يربط بين:

المجال الجغرافي الأصلي،

أنماط الاستقرار الجبلي،

التحوّلات الدينية (وخاصة الديانة الشمسية)،

الهجرات التدريجية نحو السهول،

والأثر الحضاري المتراكم للشعب الحوري.

والغاية من هذا العمل ليست إعادة سرد تاريخ معروف، بل إعادة ترتيب المشهد التاريخي على أسس علمية، تُخرج الحوريين من الهامش، وتضعهم في موقعهم الحقيقي بوصفهم أحد أعمدة التاريخ القديم للشرق الأدنى.

الإطار الجغرافي: موطن الشعوب الحورية

1. الجغرافيا بوصفها مفتاح الهوية

لا يمكن فهم الشعب الحوري خارج إطاره الجغرافي الأصلي. فالجبال لم تكن مجرد مكان للسكن، بل كانت منظومة حياة كاملة فرضت نمطًا اقتصاديًا، وشكلًا اجتماعيًا، ورؤية دينية خاصة للعالم. وقد شكّل المجال الجبلي الممتد من زاغروس شرقًا إلى أمانوس غربًا الحاضنة الأولى لتكوّن الهوية الحورية.

تميّز هذا المجال بوعورته، وتنوّع مناخه، ووفرة موارده الطبيعية مقارنة بالسهول القديمة، ما أتاح نشوء مجتمعات قادرة على الاستقرار طويل الأمد، بعيدًا عن الهيمنة السياسية المبكرة التي عرفتها مناطق السهل.

2. جبال زاغروس: النواة الأولى

تُعدّ جبال زاغروس أقدم بيئة استيطان منظم في الشرق الأدنى، وقد شكّلت العمق الجغرافي المركزي للشعوب الجبلية القديمة. تشير الدلائل الأثرية إلى وجود نشاط زراعي مبكر، وتدجين للحيوان، وبنى قروية مستقرة تعود إلى الألفين السابع والسادس قبل الميلاد.

في هذه البيئة تشكّلت:

الزراعة المدرّجة،

الرعي المنظّم،

التنظيم العشائري،

وهي عناصر سترافق الشعب الحوري في كل مراحل تاريخه اللاحقة.

3. شرق الأناضول: منطقة العبور والتفاعل

يمثّل شرق الأناضول حلقة الوصل الطبيعية بين زاغروس وسلاسل طوروس، وهو إقليم غني بالممرات الجبلية والهضاب العالية. لعبت هذه المنطقة دورًا محوريًا في تفاعل الشعوب الجبلية وتبادلها الثقافي، وأسهمت في بلورة الهوية الحورية قبل توسّعها جنوبًا وغربًا.

كما شكّل شرق الأناضول بيئة مثالية لانتقال الجماعات البشرية دون انقطاع حضاري، الأمر الذي يفسّر التشابه الكبير في الأدوات الحجرية، وأنماط القرى، والرموز الدينية بين هذه المناطق.

4. سلسلة جبال طوروس: الحاجز والدرع

شكّلت سلسلة جبال طوروس حدًا طبيعيًا فاصلاً بين الهضبة الأناضولية والسهول الرافدينية. هذا الحاجز الجغرافي منح الشعوب الجبليةـــومنها الحوريونـــقدرًا عاليًا من الاستقلال الثقافي والسياسي.

في هذه السلسلة تطوّرت:

القرى المحصّنة،

أنماط دفاعية مبكرة،

طقوس دينية مرتبطة بالقمم والمرتفعات،

ما عزّز الطابع الجبلي المقدّس في الوعي الحوري.

5. جبال أمانوس (رامانوس): بوابة الساحل

تقع جبال أمانوس في الطرف الغربي من المجال الحوري، وتشكل الجسر الطبيعي بين الداخل الجبلي والساحل السوري. وقد كان لهذه الجبال دور استثنائي في فتح قنوات التواصل التجاري والثقافي مع المدن الساحلية مثل أوغاريت.

أسهم هذا الموقع في:

توسيع نطاق الانتشار الحوري،

انتقال الرموز الدينية والموسيقية،

تفاعل الحوريين مع حضارات البحر المتوسط.

6. خلاصة الفصل

يُظهر هذا الإطار الجغرافي أن الشعب الحوري لم يكن ظاهرة عابرة، بل نتاج منظومة جبلية متكاملة شكّلت هويته عبر آلاف السنين. ومن هذه الجبال خرجت الموجات البشرية التي ستغيّر وجه السهول الرافدينية، حاملة معها بذور الحضارة الأولى.

الفصل الثاني

الشعب الحوري: الاسم والهوية والدلالة التاريخية

يُعدّ الشعب الحوري (Hurri / Ḫurri) من أكثر شعوب الشرق الأدنى القديم التي أسيء فهمها تاريخيًا، لا بسبب غياب المصادر، بل نتيجة تراكم قراءات لاحقة أسقطت مفاهيم قومية حديثة على واقع قديم مختلف جذريًا. فقد ورد اسم الحوريين في النصوص المسمارية السومرية والأكادية، ثم في النصوص الحثية والميتانية والسورية، بصيغ متقاربة تشير جميعها إلى جماعة واحدة ذات أصل جبلي واضح، امتدت مواطنها من زاغروس شرقًا حتى أمانوس غربًا.

ولا يدلّ اختلاف كتابة الاسم أو نطقه (حوري، خوري، هوري) على تعدّد شعوب أو هويات منفصلة، بل يعكس اختلاف اللغات والأنظمة الكتابية التي دوّنت الاسم. فهذه الظاهرة شائعة في العالم القديم، حيث كانت الأسماء الإثنية تُكتب بحسب النظام الصوتي للغة الكاتب، لا بحسب نطق أصحاب الاسم أنفسهم.

تتجاوز الهوية الحورية حدود التسمية اللغوية، إذ ترتبط ارتباطًا وثيقًا ببنية ثقافية–دينية عميقة، في مقدّمتها الديانة الشمسية. فقد شكّلت الشمس عند الحوريين محورًا كونيًا وأخلاقيًا، لا مجرد عنصر طبيعي. كانت الشمس رمز النظام، والعدالة، والاستمرارية، ومصدر الشرعية الروحية والاجتماعية. وانعكس هذا التصور في الطقوس، وفي اختيار مواقع المعابد، وفي الرموز الدائرية، وفي الأسماء الشخصية التي حملت دلالات النور والضياء والعلو.

ومن هنا يمكن فهم توصيف الحوريين، في بعض الدراسات الحديثة، بوصفهم «أبناء الشمس». وهو توصيف لا يحمل بعدًا أسطوريًا، بل يعكس هوية ثقافية كاملة تشكّلت في بيئة جبلية حيث الضوء، والارتفاع، وتعاقب الفصول، عناصر حاسمة في تشكيل الوعي الجمعي.

وقبل ظهور أي كيان سياسي مركزي، كانت الهوية الحورية قد تبلورت بالفعل. فالحوريون شعب سابق للدولة، تشكّلت هويته عبر آلاف السنين داخل المجتمعات الجبلية، ضمن بنية عشائرية مرنة، تقوم على القيادة الجماعية، واحترام كبار السن، وتقديس المعرفة المتوارثة. لم تكن الأرض تُفهم بوصفها حدودًا سياسية، بل بوصفها مجالًا للحياة والذاكرة والانتماء.

ومع أن الحوريين شكّلوا جزءًا من منظومة أوسع من الشعوب الجبلية، مثل السوبارتيين والكاشيين والميديين، فإنهم تميّزوا بقدرتهم على الانتقال المنظّم من الجبال إلى السهول دون فقدان هويتهم. لم يذوبوا في المجتمعات السهلية التي احتكوا بها، بل نقلوا معهم أنماطهم الدينية والاجتماعية والاقتصادية، وأسهموا في إعادة تشكيل البنى الحضارية في شمال بلاد الرافدين وسوريا والأناضول.

وعندما بدأت الكيانات السياسية الحورية–الميتانية بالظهور، لم تكن هذه الدول قطيعة مع الماضي الجبلي، بل استمرارًا له بصيغة جديدة. تحوّلت العشيرة إلى بنية سياسية، وتحولت الطقوس إلى مؤسسات دينية، وتحول الاقتصاد الجبلي إلى اقتصاد زراعي–تجاري واسع، لكن الجوهر الثقافي بقي حاضرًا.

بهذا المعنى، لا يمكن فهم الحوريين بوصفهم شعبًا عابرًا في التاريخ، بل بوصفهم حاملين لهوية جبلية عميقة أعادت إنتاج نفسها في السهول، وأسهمت في تشكيل أحد أهم الفصول في تاريخ الشرق الأدنى القديم.

البيئة الجبلية ودورها في تشكيل المجتمع الحوري

لم تكن البيئة الجبلية التي نشأ فيها الشعب الحوري مجرّد مسرح طبيعي للأحداث، بل كانت العامل البنيوي الأعمق في تشكيل المجتمع، وصياغة منظومة القيم، وبناء أنماط العيش التي ميّزت هذا الشعب عن غيره من شعوب السهول. فالحياة في الجبال تفرض شروطها القاسية، وتنتج بالضرورة مجتمعات تختلف في تنظيمها ونظرتها للعالم عن المجتمعات التي نشأت في البيئات النهرية المنبسطة.

فرضت الجبال على الحوريين نمطًا من الاعتماد المتبادل، حيث لا يمكن للفرد أن يعيش بمعزل عن الجماعة. ومن هنا تشكّل مجتمع يقوم على التضامن، وتقاسم الموارد، والعمل الجماعي، وهي عناصر أساسية لبقاء المجتمعات الجبلية في بيئات وعرة ومتقلبة المناخ. هذا الواقع أنتج بنية اجتماعية متماسكة، لا تقوم على الفردية، بل على الانتماء العشائري والروابط القرابية.

تكوّنت العشيرة عند الحوريين كوحدة اجتماعية–اقتصادية–ثقافية متكاملة. ولم تكن العشيرة مجرد رابطة دم، بل إطارًا لتنظيم العمل، وإدارة الموارد، وحماية الأفراد، ونقل المعرفة الدينية والتقليدية من جيل إلى آخر. وقد أسهم هذا التنظيم في الحفاظ على استقرار المجتمع الحوري عبر فترات طويلة، حتى في غياب أي سلطة مركزية أو دولة.

اقتصاديًا، شكّلت الجبال قاعدة استقلال حقيقي للحوريين. فقد اعتمدوا على الرعي وتربية الأغنام والماعز، إلى جانب الزراعة المدرّجة التي استغلت المنحدرات الجبلية بكفاءة عالية. كما مارسوا الصيد، واستفادوا من الموارد الحجرية والمعدنية المتوفرة في بيئتهم. هذا التنوع الاقتصادي منحهم قدرة على الصمود أمام التغيرات المناخية، وأمّن لهم اكتفاءً نسبيًا، بخلاف مجتمعات السهول التي كانت أكثر عرضة للأزمات البيئية.

ولم يقتصر تأثير البيئة الجبلية على التنظيم الاجتماعي والاقتصادي، بل امتدّ إلى الوعي الديني. فالعيش بين القمم والمرتفعات، حيث يبدو الإنسان أقرب إلى السماء، عزّز الإحساس بالقداسة المرتبطة بالعلو والنور. ومن هنا تبلورت الديانة الشمسية الحورية بوصفها تعبيرًا رمزيًا عن علاقة الإنسان بالجبل والضوء والسماء. أصبحت الشمس رمزًا للنظام الكوني، والقمم أماكن للطقوس والعبادة، والارتفاع الجغرافي دلالة على السمو الروحي.

كما أسهمت البيئة الجبلية في تشكيل عقلية حذرة، تميل إلى الدفاع والتنظيم، وهو ما يفسّر تطوّر القرى المحصّنة، واستخدام الصخور في البناء، وبروز مهارات مبكرة في التحصين.

هذه السمات ستظهر لاحقًا بوضوح في المدن الحورية–الميتانية، وفي التنظيمات العسكرية التي اشتهر بها الحوريون في مراحل تاريخية لاحقة.

إن فهم المجتمع الحوري يمرّ حتمًا عبر فهم الجبل. فالجبل لم يكن خلفية محايدة، بل كان المعلّم الأول الذي صاغ شخصية هذا الشعب، وحدّد مسار تطوّره، وهيّأه لاحقًا للانتقال إلى السهول دون أن يفقد جوهره الثقافي.

الهجرات من الجبال إلى السهول: التحوّل الكبير

لم يكن انتقال الشعب الحوري من الجبال إلى السهول حدثًا مفاجئًا أو هجرة جماعية واحدة، بل كان مسارًا تاريخيًا طويلًا ومعقّدًا امتدّ قرونًا، وربما أكثر من ألف عام. فالمجتمعات الجبلية لا تترك بيئاتها بسهولة، ولا تنزل إلى السهول إلا عندما تتغيّر شروط الحياة الاقتصادية والمناخية، أو عندما تفرض التوسّعات السكانية واقعًا جديدًا.

تشير الشواهد الأثرية والأنثروبولوجية إلى أنّ الحوريين بدأوا نزولهم التدريجي مع تحسّن الظروف المناخية في مناطق السهول، وازدياد إمكانية الزراعة المروية، إضافة إلى توسّع شبكات التبادل التجاري بين الجبال والمناطق المنخفضة. لم يكن الهدف في البداية تأسيس مدن، بل إنشاء مستوطنات انتقالية على أطراف السهول، تجمع بين نمط الحياة الجبلي ومتطلبات البيئة الجديدة.

خلال هذه المرحلة، حافظ الحوريون على بنيتهم الاجتماعية العشائرية، وعلى طقوسهم الدينية المرتبطة بالشمس والعلو، حتى وهم يستقرون في مناطق أكثر انبساطًا. فالمعابد الأولى في السهول لم تُبنَ عشوائيًا، بل اختيرت مواقعها بعناية، وغالبًا ما رُفعت على تلال اصطناعية، في محاولة رمزية لإعادة إنتاج "الارتفاع المقدّس" الذي فقدوه بمغادرة الجبال.

كما لم تكن هذه الهجرات موجّهة في اتجاه واحد، بل اتّخذت مسارات متعددة. فقد اتجهت مجموعات حورية نحو أعالي دجلة والفرات، وأخرى نحو سهول الخابور، فيما واصلت مجموعات ثالثة توسّعها غربًا باتجاه شمال سوريا والساحل. هذا الانتشار المتدرّج يفسّر الوجود الحوري الواسع في نصوص متعددة ومن مناطق جغرافية متباعدة.

ومع كل موجة هجرة، كان الحوريون يحملون معهم خبرتهم الجبلية في التنظيم، والعمل الجماعي، وإدارة الموارد. هذه الخبرة مكّنتهم من التكيّف السريع مع البيئات الجديدة، ومن لعب دور فاعل في تشكيل المجتمعات السهلية الناشئة، لا بوصفهم تابعين، بل شركاء في بناء الحضارة.

الحوريون ونشأة حضارات الرافدين

يشكّل حضور الحوريين في تاريخ بلاد الرافدين أحد المفاتيح الأساسية لفهم نشأة الحضارات الكبرى في المنطقة. فالحوريون لم يكونوا غرباء عن عالم السهول، بل دخلوا إليه حاملين معهم تراكمًا حضاريًا سابقًا تشكّل في البيئات الجبلية.

يرى عدد متزايد من الباحثين أنّ بعض الجماعات التي أسهمت في تكوين الحضارة السومرية المبكرة قد تكون خرجت من المجال الجبلي نفسه، أو على الأقل تأثّرت به بعمق.

فالتشابه في الرموز الدينية، وأساليب البناء الأولى، وتنظيم القرى الزراعية، يشير إلى وجود طبقة ثقافية أقدم سبقت التدوين السومري.

أما في المراحل اللاحقة، فقد كان للحوريين حضور أوضح في شمال بلاد الرافدين، حيث شاركوا في تأسيس مدن ومراكز حضارية لعبت دور الوسيط بين الجنوب السومري والشمال الأناضولي. وفي هذه المناطق، اندمج الحوريون جزئيًا مع المجتمعات المحلية، لكنهم حافظوا على عناصر هويتهم، خاصة في المجال الديني والعسكري.

ويتجلّى الأثر الحوري بوضوح في الفترات التي سبقت صعود الدولة الميتانية، حيث تظهر أسماء حورية، وآلهة شمسية، وأنماط اجتماعية ذات طابع جبلي في النصوص المسمارية. هذا الحضور لم يكن هامشيًا، بل كان جزءًا من البنية التكوينية للحضارة الرافدينية نفسها.

ومن هنا يمكن القول إنّ الحوريين لم يكونوا مجرّد شعب تأثّر بالحضارة، بل كانوا عنصرًا مساهمًا في إنتاجها، سواء عبر نقل الخبرات الجبلية، أو عبر إعادة تشكيل البنى الاجتماعية والدينية في البيئات السهلية.

الأدلة اللغوية والأنثروبولوجية على وحدة الأصل الحوري

يُعدّ البحث في الأدلة اللغوية والأنثروبولوجية أحد أهم المفاتيح العلمية لفهم وحدة الأصل بين الشعوب الجبلية القديمة، وفي مقدّمتها الشعب الحوري. فهذه الأدلة، بخلاف الروايات السياسية اللاحقة، تكشف عن طبقات عميقة من التاريخ المشترك تعود إلى ما قبل نشوء الدول والحدود.

من الناحية اللغوية، تظهر المقارنات بين اللغة الحورية وعدد من لغات الشرق الأدنى القديم—مثل السومرية، والكاشية، والعيلامية، والسوبارتية—وجود بنى مشتركة يصعب تفسيرها على أنها مجرد اقتراض عابر. فالتشابه في استخدام اللواحق الصرفية، وفي بناء الجملة، وفي بعض المفردات الأساسية المرتبطة بالزراعة والطبيعة والطقوس الدينية، يشير إلى طبقة لغوية أقدم سبقت تفرّع هذه اللغات.

وتزداد أهمية هذه الملاحظة عند النظر إلى المصطلحات الدينية، ولا سيما تلك المرتبطة بالشمس، والضياء، والعلو، والنظام الكوني. فهذه المفردات لا تُستعار بسهولة بين الشعوب، لأنها ترتبط بالبنية العميقة للثقافة، لا بالاستخدام اليومي فقط. إن تكرار هذه الجذور في مناطق زاغروس وطوروس وأمانوس يعزّز فرضية الأصل الجبلي المشترك.

أما من الناحية الأنثروبولوجية، فتُظهر الدراسات المقارنة تشابهًا واضحًا في أنماط الأدوات الحجرية، وأساليب البناء، وطرائق استغلال البيئة الجبلية. كما تتقارب عادات الدفن، وخاصة تلك المرتبطة بوضعية الجسد والقرابين، ما يدل على منظومة رمزية واحدة انتشرت عبر المجال الجبلي الواسع.

ولا يقلّ التنظيم الاجتماعي أهمية عن ذلك، إذ يظهر التشابه في البنية العشائرية، وأنماط القرابة، وآليات اتخاذ القرار الجماعي، وهي سمات نادرًا ما تتطابق بين شعوب مختلفة الأصل. هذه العناصر مجتمعة تشير إلى أنّ الحوريين لم يكونوا ظاهرة معزولة، بل جزءًا من جذر بشري جبلي واحد تشعّبت منه شعوب عدّة مع الزمن.

الديانة الشمسية الحورية: البعد الكوني للهوية

تحتلّ الديانة الشمسية موقعًا مركزيًا في فهم الهوية الحورية، إذ لا يمكن فصل البنية الدينية عن الجغرافيا التي نشأ فيها هذا الشعب. فالعيش في المرتفعات، حيث الضوء حادّ، والشروق والغروب مشهدان يوميان مهيبان، أسهم في تحويل الشمس من عنصر طبيعي إلى مبدأ كوني شامل.

لم تكن الشمس عند الحوريين إلهًا بمعناه الضيّق فقط، بل كانت رمزًا للنظام، والعدالة، واستمرارية الحياة. فقد ارتبطت حركة الشمس بدورة الزراعة، وبمواسم الرعي، وبالتقويم السنوي الذي نظّم حياة المجتمع. ومن هنا اكتسبت الشمس وظيفة تشريعية وأخلاقية، لا طقسية فحسب.

انعكس هذا التصوّر في الطقوس الدينية التي كانت تُقام عند الشروق والغروب، وفي اختيار مواقع المعابد فوق القمم أو التلال المرتفعة، في محاولة دائمة للاقتراب من مصدر النور. كما ظهرت الرموز الدائرية بكثرة في النقوش والزخارف، بوصفها تمثيلًا بصريًا لدورة الشمس والزمان.

ومع نزول الحوريين إلى السهول، لم تختفِ هذه الديانة، بل انتقلت معهم وتكيّفت مع البيئات الجديدة. فظهرت آثارها في الديانة السومرية من خلال الإله شمش، وفي الديانات الأكادية والبابلية، ثم في العالم الحثي والميتاني. هذا الانتشار الواسع يؤكّد أن الديانة الشمسية الحورية كانت أحد الجذور الدينية الكبرى في الشرق الأدنى القديم.

الاقتصاد الحوري: من الجبل إلى السهل

شكّل الاقتصاد الحوري أحد الأعمدة الأساسية التي مكّنت هذا الشعب من الاستمرار طويلًا في بيئة جبلية قاسية، ثم من الانتقال لاحقًا إلى السهول دون انهيار اجتماعي أو ثقافي. فقد تميّز الاقتصاد الحوري بمرونته وتنوّعه، وهو ما يعكس خبرة طويلة في التكيّف مع الطبيعة المتغيّرة.

في الجبال، اعتمد الحوريون على الزراعة المدرّجة التي استغلّت المنحدرات الصخرية بكفاءة عالية، ومنعت انجراف التربة، وسمحت بزراعة محاصيل أساسية مثل الشعير والقمح والعدس والكروم. وقد ارتبطت هذه الزراعة ارتباطًا مباشرًا بالتقويم الشمسي، حيث كانت مواعيد الزرع والحصاد تُحدَّد وفق حركة الشمس وتعاقب الفصول.

إلى جانب الزراعة، لعب الرعي دورًا محوريًا في الاقتصاد الحوري، ولا سيما تربية الأغنام والماعز التي تلاءمت مع البيئة الجبلية. ولم يكن الرعي نشاطًا هامشيًا، بل شكّل مصدرًا أساسيًا للغذاء، والملابس، ومواد التبادل التجاري، خاصة الصوف والجلود. كما أسهم استئناس الحيوانات في تعزيز قدرة الحوريين على التنقّل وحماية القوافل التجارية.

ومع توسّع شبكات التبادل، برز الحوريون بوصفهم وسطاء تجاريين بين الأناضول وبلاد الرافدين وسوريا. فقد استفادوا من الممرات الجبلية الطبيعية في طوروس وأمانوس لنقل الأخشاب، والمعادن، والأحجار الكريمة، مقابل المنتجات الزراعية السهلية. هذا الدور التجاري منحهم موقعًا استراتيجيًا، وأسهم في إدخالهم المبكر في الاقتصاد الإقليمي الواسع.

كما كان للتعدين حضور واضح في الاقتصاد الحوري، خاصة استخراج النحاس وصناعة البرونز في مراحل مبكرة. وقد شكّلت هذه الخبرة المعدنية أساسًا لتفوّقهم العسكري لاحقًا، ولا سيما في صناعة الأدوات والأسلحة.

ومع النزول إلى السهول، لم يُلغَ هذا الاقتصاد الجبلي، بل أُعيد تنظيمه ضمن منظومة أوسع، جمعت بين الزراعة المروية، والتجارة البعيدة، والصناعات الحرفية. وهكذا تحوّل الاقتصاد الحوري من اقتصاد بقاء إلى اقتصاد مساهم في بناء الحضارات.

الأساطير الحورية والسومرية: الجذور المشتركة

تكشف المقارنة بين الأساطير الحورية والسومرية عن وجود طبقة رمزية مشتركة تعود إلى مرحلة ما قبل استقرار الشعوب الجبلية في السهول. فالتشابه لا يقتصر على الشخصيات الإلهية، بل يمتد إلى بنية الأسطورة نفسها، وإلى الرموز الكونية المرتبطة بالخلق، والخصب، ودورة الحياة.

في الأساطير الحورية، تحتل الشمس موقعًا مركزيًا بوصفها القوة الخالقة الأولى، ومصدر النظام الكوني. ويظهر هذا التصور بوضوح في أساطير الخلق التي تربط النور ببداية الوجود. ويقابل هذا المفهوم في الأساطير السومرية حضور الإله "أن" في السماء العليا، بوصفه أصل السلطة والخلق.

كما تتقاطع الأساطير لدى الجانبين في مفهوم الدورة الكونية، حيث تتكرر مفاهيم الموت والانبعاث، والخصب والجفاف، في ارتباط مباشر بحركة الشمس والفصول. وتظهر هذه الفكرة في الأساطير السومرية المرتبطة بدموزي وإنانا، وفي الأساطير الحورية التي تربط الخصب بدورة النور السنوية.

وتحتل الجبال مكانة مقدّسة في كلا التقليدين. فالحوريون يرون في الجبال مساكن الآلهة، ومراكز للقوة الروحية، بينما تظهر الجبال في النصوص السومرية بوصفها فضاءً غامضًا يحمل أسرار الخلق. هذا التقاطع الرمزي يشير إلى ذاكرة جبلية مشتركة سبقت النزول إلى السهول.

إن انتقال هذه الأساطير لم يكن نتيجة تقليد لاحق، بل ثمرة احتكاك طويل بين شعوب ذات أصل واحد، أعادت صياغة رموزها القديمة في بيئات جديدة. ومن هنا يمكن فهم الأساطير السومرية لا بوصفها قطيعة مع الماضي الجبلي، بل استمرارًا له في سياق حضاري مختلف.

الدولة الميتانية والعسكرية الحورية

يمثّل قيام الدولة الميتانية ذروة التطوّر السياسي للشعب الحوري، وليس بداية تاريخه كما يُظن أحيانًا. فالكيان الميتاني لم ينشأ من فراغ، بل كان نتيجة تراكم طويل من الخبرات الاجتماعية والعسكرية والاقتصادية التي تشكّلت في البيئة الجبلية ثم نضجت في السهول.

برز الحوريون، في هذه المرحلة، كقوة عسكرية منظّمة، ويُعزى ذلك إلى خبرتهم المبكرة في التحصين والدفاع، وإلى معرفتهم العميقة بتربية الخيول وصناعة العربات القتالية

الخفيفة. وقد شكّلت العربة الحربية السلاح الاستراتيجي الأبرز للميتانيين، حيث جمعت بين السرعة والدقّة والقدرة على المناورة، وهو نموذج عسكري سيؤثّر لاحقًا في الجيوش الحثية والمصرية.

لم تكن العسكرية الحورية قائمة على القتال وحده، بل ارتبطت بحماية طرق التجارة، وضبط المجال الحيوي للدولة، وتأمين الاستقرار السياسي. وقد ساعد هذا التنظيم على بسط النفوذ الميتاني على مناطق واسعة من شمال بلاد الرافدين وسوريا، وجعل من الدولة لاعبًا دوليًا مهمًا في القرن الخامس عشر قبل الميلاد.

ورغم الطابع السياسي للدولة، بقيت الجذور الثقافية الحورية واضحة في بنية الحكم، وفي الطقوس، وفي المرجعية الدينية التي استمرت في تقديس الشمس والآلهة المرتبطة بالنظام الكوني.

الموسيقى الحورية: أنشودة نيكال

تحتل الموسيقى مكانة فريدة في التراث الحوري، إذ تمثّل أحد أقدم أشكال التعبير الرمزي المنظّم في تاريخ الإنسانية. وقد كشفت الألواح المكتشفة في أوغاريت عن أنشودة نيكال، أقدم تدوين موسيقي معروف حتى اليوم، ما يمنح الموسيقى الحورية بعدًا حضاريًا عالميًا.

نشأت الموسيقى الحورية في بيئة جبلية حيث للصدى الطبيعي دور أساسي في تشكيل الإحساس بالنغمة والإيقاع. وقد انعكس ذلك في بناء سلالم موسيقية تعتمد على التدرّج الصوتي، وفي استخدام آلات مثل القيثارة، والعود البدائي، والناي القصبي، والطبول.

كانت أنشودة نيكال موجّهة للإلهة نيكال، سيدة البساتين والخصوبة، ومرتبطة بالدورة الزراعية والطقوس الشمسية. ويكشف نصّها الشعري عن تطوّر لغوي ورمزي عميق، حيث تتداخل مفاهيم النور، والحياة، والإنبات، في صياغة واحدة.

لم تكن الموسيقى نشاطًا ترفيهيًا، بل جزءًا لا يتجزأ من العبادة الشمسية. فقد كانت تُعزف ألحان تصاعدية عند الشروق، وأخرى هادئة عند الغروب، في محاكاة رمزية لحركة الشمس في السماء. وانتقلت هذه التقاليد الموسيقية لاحقًا إلى السومريين والحثيين والكنعانيين، ما يؤكّد عمق التأثير الحوري في تاريخ الموسيقى القديمة.

العلاقات الحورية–المصرية والعالم الدولي القديم

تكشف رسائل تل العمارنة عن موقع الدولة الميتانية في شبكة العلاقات الدولية في الشرق الأدنى القديم. فقد ارتبط ملوك الميتانيين بعلاقات دبلوماسية مع الفراعنة، شملت تبادل الهدايا، والتحالفات السياسية، والمصاهرات الملكية.

تعكس هذه الرسائل اعترافًا دوليًا بقوة الميتانيين، وبمكانتهم بوصفهم ورثة تقاليد حورية عريقة. كما تُظهر كيف انتقلت الثقافة الحورية من المجال الجبلي إلى مسرح السياسة الدولية، دون أن تفقد هويتها الرمزية والدينية.

العمارة الحورية بين الجبل والسهل

تُظهر العمارة الحورية توازنًا واضحًا بين متطلبات البيئة الجبلية والسهولية. ففي الجبال، اعتمد الحوريون على الحجر، وبنوا قرى مدرّجة وحصونًا تستفيد من التضاريس الطبيعية. أما في السهول، فقد استخدموا اللبن والطين، وابتكروا تخطيطات دائرية تعكس الطقوس الشمسية.

هذا الانتقال المعماري لا يدل على قطيعة، بل على تكيف ذكي مع البيئة الجديدة، مع الحفاظ على الرمزية الدينية والاجتماعية.

الدولة الميتانية والعسكرية الحورية

شكّلت الدولة الميتانية الذروة السياسية والعسكرية للتاريخ الحوري، لكنها لم تكن انقطاعًا عن الماضي الجبلي، بل نتيجة طبيعية لتراكم طويل من الخبرة الاجتماعية والاقتصادية والتنظيمية. فالميتانيون، في جوهرهم، حوريون انتقلوا من مرحلة التنظيم العشائري إلى مرحلة الدولة، مع الحفاظ على كثير من البنى الثقافية القديمة.

برزت مملكة ميتاني في شمال بلاد الرافدين وشرق الأناضول خلال الألف الثاني قبل الميلاد، في منطقة شكّلت عقدة وصل بين القوى الكبرى في ذلك العصر، مثل مصر والحثيين وبابل. وقد استطاع الحوريون، عبر هذه الدولة، أن يفرضوا أنفسهم قوة إقليمية كبرى، لا عبر العدد، بل عبر التفوّق التنظيمي والعسكري.

كان العنصر الأبرز في العسكرية الحورية هو العربات القتالية الخفيفة، التي طوّروها إلى مستوى متقدّم من حيث السرعة والمرونة والتنسيق. لم تكن هذه العربات مجرّد وسيلة قتال، بل جزءًا من منظومة عسكرية متكاملة تضم تدريبًا منظمًا، وتقسيمًا واضحًا للأدوار بين القائد والرامي، واعتمادًا على الخيول المدربة بعناية.

وتشير النصوص إلى أن الحوريين وضعوا أسسًا نظرية لتدريب الخيول والعربات، وهو ما سينتقل لاحقًا إلى الحثيين، بل وحتى إلى المصريين في فترات لاحقة. هذا التفوّق العسكري مكّن الدولة الميتانية من السيطرة على مساحات واسعة، وحماية طرق التجارة، وفرض نفسها لاعبًا أساسيًا في التوازنات الدولية.

سياسيًا، لم تكن الدولة الميتانية دولة مركزية صارمة، بل حافظت على قدر من التوازن بين السلطة الملكية والبنى العشائرية، وهو إرث جبلي واضح. هذا التوازن أسهم في استقرار الدولة لفترة طويلة، رغم الضغوط الخارجية المستمرة.

الموسيقى الحورية: أنشودة نيكال

تحتل الموسيقى الحورية مكانة فريدة في تاريخ الإنسانية، إذ تمثّل أقدم تقليد موسيقي مدوّن وصل إلينا. فقد كشفت الألواح الطينية المكتشفة في أوغاريت عن نص موسيقي حوري يُعرف بـ أنشودة نيكال، وهو أقدم تدوين موسيقي معروف حتى اليوم.

لا يمكن فهم هذه الموسيقى بمعزل عن البيئة الجبلية التي نشأت فيها. فالجبال، بصداها الطبيعي وفضاءاتها المفتوحة، أسهمت في تطوير حسّ موسيقي يعتمد على الانتقالات

التدريجية والسلالم الصوتية الواضحة. وقد انعكس ذلك في اعتماد الحوريين على مقامات بدائية ذات طابع سباعي، تشكّل الأساس الأول لما سيُعرف لاحقًا بالمقامات الشرقية.

أنشودة نيكال ليست مجرد قطعة فنية، بل نص ديني–زراعي موجّه للإلهة نيكال، سيدة البساتين والخصوبة. وهي ترتيلة مرتبطة بالدورة الشمسية، وبمواسم الزرع والحصاد، ما يعكس الترابط العميق بين الموسيقى والديانة الشمسية الحورية.

وتشير الرموز الموسيقية الواردة في الألواح إلى نظام نظري متقدّم، يتضمّن تحديدًا للنغمات والمسافات الصوتية، وهو ما يدل على وعي موسيقي سابق بكثير لما كان يُعتقد عن موسيقى العالم القديم. كما استُخدمت آلات مثل القيثارة ذات الأوتار المتعددة، والناي القصبي، والطبول الإيقاعية في الطقوس والاحتفالات.

انتقل هذا التراث الموسيقي لاحقًا إلى السومريين، ثم إلى الحثيين، ومنها إلى تقاليد موسيقية أخرى في الشرق الأدنى، ما يجعل الموسيقى الحورية أحد الجذور الصامتة للموسيقى الإنسانية.

الدولة الميتانية والعسكرية الحورية

بلغ الحضور الحوري ذروته السياسية والعسكرية مع قيام الدولة الميتانية في القرن السادس عشر قبل الميلاد، وهي الدولة التي مثّلت تتويجًا لمسار طويل من التراكم الاجتماعي والعسكري والثقافي. لم تظهر ميتاني فجأة، بل كانت نتيجة طبيعية لتماسك الجماعات الحورية، وقدرتها على تحويل التنظيم العشائري إلى كيان سياسي مركزي دون التفريط بجوهر الهوية الجبلية.

تميّزت الدولة الميتانية ببنية عسكرية متقدّمة قياسًا بعصرها، وكان الحوريون روّادًا في تطوير العربات القتالية الخفيفة التي اعتمدت على السرعة والمناورة بدل الثقل العددي. وقد شكّلت هذه العربات عنصر تفوّق حاسم في الصراعات الإقليمية، حتى تبنّاها الحثيون والمصريون لاحقًا، ما يدل على التأثير الحوري المباشر في تاريخ الحرب القديمة.

لم تكن العسكرية الحورية قائمة على العنف وحده، بل على تنظيم صارم، وتدريب طويل، ومعرفة دقيقة بالجغرافيا. فخبرة الحوريين في الجبال منحتهم قدرة استثنائية على الحركة، وتأمين طرق التجارة، وحماية الممرات الاستراتيجية بين الأناضول وبلاد الرافدين وسوريا.

سياسيًا، أقامت ميتاني شبكة علاقات دولية واسعة، أبرزها مع مصر الفرعونية، كما يظهر في رسائل تل العمارنة. لم تكن هذه العلاقات ثانوية، بل عكست موقع ميتاني كقوة كبرى قادرة على موازنة النفوذ الحثي والبابلي. وهكذا تحوّل الحوريون من شعب جبلي إلى فاعل دولي في ميزان القوى القديم.

الموسيقى الحورية: أنشودة نيكال وصوت الجبال

تحتل الموسيقى الحورية مكانة فريدة في تاريخ الإنسانية، إذ تمثّل أقدم نظام موسيقي مدوَّن وصل إلينا. فقد كشفت ألواح أوغاريت عن أنشودة نيكال، وهي ترتيلة دينية موجهة للإلهة نيكال، سيدة الخصوبة والبساتين، وتُعد أقدم نص موسيقي مكتوب في العالم.

نشأت الموسيقى الحورية في بيئة جبلية، حيث يلعب الصدى الطبيعي دورًا أساسيًا في تشكيل الإحساس بالنغم. وقد انعكس ذلك في اعتماد سلالم موسيقية تدريجية، وانتقالات صوتية محسوبة، تعبّر عن علاقة الإنسان الحوري بالطبيعة والضوء والحركة.

لم تكن الموسيقى مجرد فن، بل جزءًا لا يتجزأ من الطقس الديني الشمسي. فقد كانت الألحان تُعزف عند الشروق والغروب، وترافق الطقوس الزراعية والاحتفالات الموسمية، في تعبير رمزي عن دورة الحياة والزمان. واستخدم الحوريون آلات متعددة، مثل القيثارة، والعود البدائي، والناي القصبي، والطبول الإيقاعية.

انتقل هذا الإرث الموسيقي إلى السومريين والحثيين، ثم إلى تقاليد موسيقية لاحقة في سوريا والأناضول، ما يجعل الموسيقى الحورية أحد الجذور العميقة للموسيقى الشرقية.

العلاقات الحورية–المصرية: السياسة عبر الدبلوماسية

تكشف رسائل تل العمارنة عن مستوى متقدّم من العلاقات الدبلوماسية بين ملوك ميتاني والفراعنة المصريين. فقد قامت هذه العلاقات على التحالفات، وتبادل الهدايا، والمصاهرات الملكية، في سياق صراع القوى الكبرى في الشرق الأدنى القديم.

تعكس هذه المراسلات لغة سياسية راقية، تدل على وعي الحوريين بأهمية التوازن الدولي، وقدرتهم على استخدام الدبلوماسية إلى جانب القوة العسكرية. كما تكشف عن اعتراف مصري صريح بمكانة ميتاني بوصفها قوة ندّية، لا دولة هامشية.

الدولة الميتانية والعسكرية الحورية

بلغ الحضور السياسي للحوريين ذروته مع قيام الدولة الميتانية في الألف الثاني قبل الميلاد، وهي كيان لم ينشأ من فراغ، بل مثّل تتويجًا لتراكم اجتماعي وعسكري وثقافي طويل. فقد استطاع الحوريون، بعد قرون من الاستقرار في السهول الشمالية لبلاد الرافدين وسوريا، تحويل بنيتهم العشائرية إلى تنظيم سياسي مركزي، دون أن يفقدوا جوهرهم الجبلي.

تميّزت الميتانية بنظام عسكري متقدّم، كان أساسه العربات القتالية الخفيفة التي طوّرها الحوريون إلى نموذج فعّال في ساحات القتال. لم تكن العربة مجرّد أداة حرب، بل نظامًا متكاملًا يجمع بين السرعة، والتكتيك، والانضباط. وقد انتقل هذا الابتكار لاحقًا إلى الحثيين والمصريين، ما يدلّ على التأثير العميق للتجربة الحورية.

كما عكست الدولة الميتانية قدرة الحوريين على إدارة علاقات دولية معقّدة، قائمة على التحالفات والمصاهرات الملكية، وهو ما يظهر بوضوح في مراسلاتهم مع مصر والحثيين. لم تكن هذه الدولة قوة عسكرية فحسب، بل فاعلًا سياسيًا رئيسيًا في ميزان القوى الإقليمي.

الفصل الحادي عشر

الموسيقى الحورية: أنشودة نيكال

تُعدّ الموسيقى الحورية من أقدم التقاليد الموسيقية المدوّنة في تاريخ الإنسانية. ويشكّل اكتشاف أنشودة نيكال في أوغاريت أقدم دليل معروف على تدوين موسيقي نظري، ما يمنح التراث الحوري مكانة فريدة في تاريخ الثقافة العالمية.

نشأت الموسيقى الحورية في بيئة جبلية يتردّد فيها الصوت طبيعيًا بين الوديان والمرتفعات، ما ساعد على تطوير سلالم نغمية تعتمد على الانتقال التدريجي بين الدرجات. ولم تكن الموسيقى نشاطًا ترفيهيًا، بل جزءًا لا يتجزأ من الطقوس الدينية، وخصوصًا العبادة الشمسية.

كانت أنشودة نيكال ترتيلة موجهة للإلهة نيكال، سيدة الخصوبة والبساتين، وتعكس ارتباط الموسيقى بالدورة الزراعية وبمواسم النور. وقد انتقلت العناصر الموسيقية الحورية إلى السومريين والحثيين والكنعانيين، لتشكّل أساسًا لكثير من التقاليد الموسيقية اللاحقة في الشرق الأدنى.

الفصل الثاني عشر

العلاقات الحورية–المصرية ورسائل تل العمارنة

تكشف رسائل تل العمارنة عن مستوى متقدّم من العلاقات الدبلوماسية بين ملوك الميتانيين والفراعنة المصريين. فقد قامت هذه العلاقات على تبادل الهدايا، والمصاهرات الملكية، والتحالفات العسكرية، ما يدلّ على اعتراف متبادل بالمكانة السياسية.

تعكس هذه الرسائل أيضًا صورة الحوريين بوصفهم قوة منظّمة ذات ثقافة سياسية راقية، قادرة على التفاوض وإدارة المصالح الإقليمية. ولم تكن هذه العلاقات هامشية، بل أسهمت في استقرار التوازن السياسي في الشرق الأدنى لفترات طويلة.

الفصل الثالث عشر

العمارة الحورية: من الحجر إلى الطين

تُظهر العمارة الحورية أثر البيئة بوضوح، إذ اعتمدت المدن الجبلية على الحجر والتحصين الطبيعي، بينما استخدمت المدن السهلية اللبن والطين. ومع ذلك، حافظ التخطيط العمراني على رمزية واضحة، خاصة في اختيار المواقع المرتفعة للمعابد، وفي التخطيطات الدائرية التي تعكس التصورات الشمسية.

هذا الانتقال المعماري لم يكن قطيعة، بل تطوّرًا وظيفيًا حافظ على الرموز الأساسية، وكيّفها مع المواد والظروف الجديدة.

الفصل الرابع عشر

الشعوب المرتبطة بالحوريين: سوبارتو، كاشيون، أموريون

يرتبط الحوريون ارتباطًا وثيقًا بعدد من الشعوب الجبلية التي تشاركت معهم الجغرافيا والأصول الثقافية. فقد شكّل السوبارتيون في شمال دجلة، والكاشيون في زاغروس، والأموريون في أطراف البادية، حلقات ضمن منظومة بشرية واحدة تشعّبت مع الزمن.

وتظهر أوجه الصلة في اللغة، والتنظيم الاجتماعي، والرموز الدينية، ما يعزّز فرضية الجذر الجبلي المشترك، دون إنكار خصوصية كل مجموعة في مسارها التاريخي.

الفصل الخامس عشر

الجدول الزمني للحضور الحوري

يمتد الحضور الحوري عبر آلاف السنين، من الاستقرار الجبلي المبكر في الألف السابع قبل الميلاد، مرورًا بموجات الهجرة إلى السهول، وصولًا إلى ذروة النفوذ الميتاني في الألف الثاني قبل الميلاد. هذا الامتداد الزمني الطويل يؤكّد أنّ الحوريين ليسوا ظاهرة عابرة، بل عنصرًا بنيويًا في تاريخ المنطقة.

الخاتمة العامة

يُظهر هذا الكتاب أنّ الشعب الحوري–الخوري–الهوري كان أحد الأعمدة الأساسية التي قامت عليها حضارات الشرق الأدنى القديم. فمن الجبال خرجت الهوية، ومن السهول تشكّلت الدولة، وبينهما انتقلت اللغة، والدين، والموسيقى، والاقتصاد.

إن إعادة قراءة التاريخ من منظور جغرافي–أنثروبولوجي تُعيد للحوريين موقعهم الحقيقي، لا بوصفهم هامشًا، بل بوصفهم قلبًا نابضًا في تشكّل الحضارة. ومن دون فهم هذا الدور، يبقى تاريخ الشرق الأدنى ناقصًا ومجزّأ.

أنطلق في هذا العمل من قناعة علمية راسخة مفادها أن فهم الشعب الحوري لا يمكن أن يتم عبر تتبّع الأحداث السياسية وحدها، ولا من خلال الدول التي حملت أسماءه في فترات متأخرة، بل عبر العودة إلى الجذور الجغرافية والأنثروبولوجية واللغوية التي شكّلت هذا الشعب قبل ظهور الدولة والتدوين. فالحوريون، في نظري، ليسوا نتاج كيان سياسي عابر، بل حصيلة تاريخ طويل من التفاعل بين الإنسان والبيئة الجبلية في نطاق جغرافي محدّد امتد من زاغروس إلى طوروس وأمانوس.

أُبيّن، اعتمادًا على المعطيات الأثرية والأنثروبولوجية، أن البيئة الجبلية لم تكن مجرد موطن للحوريين، بل كانت العامل البنيوي الذي صاغ نمط حياتهم، وبنيتهم الاجتماعية، واقتصادهم، بل وحتى رؤيتهم الدينية للعالم. فالمجتمعات التي تعيش في المرتفعات لا تُنتج أنماطًا سياسية مركزية مبكرة، بل تطوّر تنظيمات عشائرية مرنة قائمة على التضامن، والعمل الجماعي، واحترام الخبرة، وهي سمات أجدها واضحة في كل ما وصلنا عن الحوريين قبل الميتانيين.

وقد أكدت دراسات غربية كلاسيكية وحديثة هذه الحقيقة، مثل أعمال

Hans J. Nissen و Gernot Wilhelm و Ignace Gelb، الذين ربطوا الوجود الحوري المبكر بالبيئات الجبلية شمالي بلاد الرافدين وشرقي الأناضول، وأشاروا إلى أن الحوريين يمثلون طبقة سكانية أقدم من كثير من الكيانات السياسية اللاحقة. كما تذهب

دراسات Jean Bottéro و Mario Liverani إلى أن جزءًا كبيرًا من البنى الاجتماعية والدينية في شمال الرافدين لا يمكن فهمه دون افتراض مساهمة جبلية سابقة.

ومن الناحية اللغوية، أعتمد على المقارنة البنيوية لا المعجمية السطحية. فاللغة الحورية، كما أثبتت دراسات Wilhelm و Diakonoff، تحمل سمات تركيبية تجعلها أقرب إلى منظومة لغوية جبلية مستقلة، لا إلى اللغات السامية أو الهندوأوروبية. وعندما أقارن هذه السمات مع اللغات السومرية والكاشية والعيلامية، لا أزعم وحدة لغوية مباشرة، بل أُشير إلى طبقة لغوية أقدم تشكّلت في المجال الجبلي نفسه، ثم تفرّعت عنها لغات متعددة مع الهجرات والاستقرار في السهول.

أما في ما يتعلّق بالديانة، فأنا أرى أن الديانة الشمسية الحورية ليست ظاهرة معزولة، بل نتاجًا طبيعيًا لبيئة جبلية يكون فيها الضوء، والارتفاع، وتعاقب الفصول عناصر حاسمة في تشكيل الوعي الجمعي. الشمس هنا ليست إلهًا بالمعنى اللاهوتي الضيق، بل مبدأ كوني ينظّم الزمن، والزراعة، والشرعية، والنظام الأخلاقي. هذا ما يفسّر، في رأيي، انتقال الرموز الشمسية الحورية إلى السومريين عبر الإله أوتو/شمش، ثم إلى الأكديين والبابليين والحثيين.

وتتوافق هذه القراءة مع ما ذهب إليه باحثون مثل Mircea Eliade في تحليله للديانات الطبيعية، حيث ربط بين البيئات المرتفعة والديانات النورية، ومع دراسات Samuel Noah Kramer التي أظهرت أن كثيرًا من الرموز الدينية السومرية أقدم من التدوين نفسه، ما يفتح الباب أمام أصل جبلي سابق.

وفي إطار الهجرات، أرفض التصوّر التبسيطي الذي يرى في نزول الحوريين إلى السهول "غزوًا" أو "اجتياحًا". بل أعتبره مسارًا طويلًا من الانتقال التدريجي، فرضته تحوّلات مناخية واقتصادية، ورافقته مراحل استيطان انتقالية. هذا الطرح يتقاطع مع ما قدّمه Robert McCormick Adams في دراساته عن تشكّل المجتمعات الأولى في الرافدين، حيث أكّد أن التحوّل من الجبل إلى السهل كان عملية تاريخية معقّدة، لا حدثًا فجائيًا.

ومن هنا أصل إلى خلاصة مركزية أؤكد عليها في هذا الكتاب:

الحوريون لم يكونوا هامشًا في تاريخ الشرق الأدنى، بل أحد روافده التكوينية الأساسية. لقد نقلوا إلى السهول خبرة جبلية متراكمة في التنظيم، والدين، والاقتصاد، وأسهموا في صياغة البنى التي قامت عليها حضارات كبرى. إن تغييب هذا الدور في السرديات الكلاسيكية ليس

نتيجة نقص الأدلة، بل نتيجة قراءات لاحقة فضّلت الدولة المكتوبة على المجتمع السابق للتدوين.

عندما أتناول التاريخ الحوري، فإنني لا أنطلق من كيان سياسي عابر أو من دولة ظهرت ثم اختفت، بل من بنية حضارية عميقة تشكّلت قبل الدولة بزمن طويل. فالدولة الميتانية، التي تُعدّ في الأدبيات الكلاسيكية ذروة الظهور السياسي للحوريين، ليست في نظري سوى التعبير المتأخر عن تراكم اجتماعي وعسكري وديني نشأ في البيئة الجبلية وهاجر تدريجيًا إلى السهول.

لقد أثبتت النصوص الحثية والمصرية، ولا سيما رسائل تل العمارنة، أن الميتانيين لم يظهروا فجأة كقوة طارئة، بل دخلوا المشهد الدولي وهم يمتلكون تنظيمًا عسكريًا متقدّمًا، ونظامًا سياسيًا مستقرًا، ورمزية دينية واضحة. هذا المستوى من النضج لا يمكن تفسيره إلا بوجود خبرة تاريخية سابقة طويلة، تعود جذورها إلى المجتمعات الحورية الجبلية.

أرى أن العسكرية الحورية لم تكن اختراعًا سهلًّيًا، بل تطورًا طبيعيًا لخبرة جبلية قاسية. فالجبل يفرض الدفاع، والانضباط، والتنظيم الجماعي. ومن هنا يمكن فهم براعة الحوريين في تطوير العربات القتالية الخفيفة، التي ستُحدث لاحقًا ثورة حقيقية في الحروب القديمة، وتنتقل من الميتانيين إلى الحثيين، ثم إلى المصريين. وقد أكد هذا المسار عدد من الباحثين الغربيين، مثل:

Hans Gustav Güterbock

Trevor Bryce

Mary R. Bachvarova

الذين ربطوا بوضوح بين الحوريين وتطور تقنيات الحرب بالعجلات.

ولا يقلّ الجانب الثقافي أهمية عن العسكري. فحين أتناول الموسيقى الحورية، وتحديدًا أنشودة نيكال المكتشفة في أوغاريت، فإنني أتعامل معها بوصفها شاهدًا حضاريًا لا يقل أهمية عن أي نص سياسي. إن وجود تدوين موسيقي نظري يعود إلى القرن الرابع عشر قبل الميلاد يؤكد أن الحوريين بلغوا مستوى متقدمًا من التجريد الفكري، وهو ما لا يتأتى لشعوب بدائية أو طارئة.

لقد أثبتت دراسات كل من:

Anne Draffkorn Kilmer

Richard Dumbrill

أن التدوين الموسيقي الحوري يعكس نظامًا نغميًا متكاملًا، يقوم على سلالم صوتية مدروسة، وهو ما يشير إلى تقليد موسيقي أقدم بكثير من زمن التدوين نفسه. وأنا أرى أن هذا التقليد لا يمكن فصله عن البيئة الجبلية، حيث يلعب الصدى الطبيعي، والطقوس الشمسية، والاحتفالات الموسمية دورًا أساسيًا في نشوء الموسيقى.

ومن خلال تتبّعي للأساطير والنصوص الدينية، يتضح لي أن الديانة الشمسية الحورية لم تكن مجرد عبادة محلية، بل نظامًا فكريًا كونيًا انتقل إلى السهول وأعاد تشكيل المعتقدات الرافدينية. فالإله الحوري شيميغ ليس إلا التعبير الجبلي الأول عن مفهوم الشمس–العدالة، الذي سيظهر لاحقًا في سومر باسم أوتو، وفي أكّد وبابل باسم شمش. وقد أشار إلى هذا الامتداد باحثون مثل:

Thorkild Jacobsen

Samuel Noah Kramer

في دراساتهم حول الدين السومري وأصوله الرمزية.

ومن هنا، فإنني أرفض الطرح الذي يعزل الحوريين عن السياق الحضاري العام للشرق الأدنى. بل أؤكد، استنادًا إلى الأدلة اللغوية والأنثروبولوجية والموسيقية والدينية، أن الحوريين شكّلوا أحد الجذور التأسيسية للحضارة، لا في بعدها السياسي فحسب، بل في بنيتها الفكرية العميقة.

إن ما انتقل من الجبال إلى السهول لم يكن بشرًا فقط، بل:

أنماط تفكير

رموز كونية

تقاليد موسيقية

مفاهيم للسلطة والعدالة

وهذا ما يجعل التاريخ الحوري، في نظري، مفتاحًا ضروريًا لإعادة قراءة تاريخ الشرق الأدنى القديم قراءة غير إسقاطية، وغير خاضعة للسرديات القومية المتأخرة.

مراجع علمية (عينة أولية – سنوسّعها لاحقًا)

مراجع غربية:

Gernot Wilhelm, The Hurrians

Trevor Bryce, The Kingdom of the Hittites

Hans G. Güterbock, Hurrian Studies

Mary R. Bachvarova, From Hittite to Homer

Anne D. Kilmer, The Discovery of an Ancient Mesopotamian Theory of Music

Samuel Noah Kramer, History Begins at Sumer

مراجع عربية:

طه باقر، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة

فاضل عبد الواحد، سومر: الأسطورة والتاريخ

خزعل الماجدي، الديانات المشرقية القديمة

الديانة الشمسية الحورية بوصفها بنية فكرية كونية

أرى أن فهم الديانة الحورية لا يمكن أن يتمّ بوصفها مجموعة طقوس دينية معزولة، بل يجب التعامل معها باعتبارها بنية فكرية كونية تشكّلت في بيئة جبلية محدّدة، وانعكست على رؤية الإنسان الحوري للعالم، والزمن، والسلطة، والعدالة. فالشمس، في التصوّر الحوري، ليست إلهًا محليًا محدود الوظيفة، بل مبدأ شامل ينظّم الكون والطبيعة والمجتمع معًا.

إن العيش في البيئات الجبلية المرتفعة، حيث يكون الضوء أكثر حدّة، وتعاقب الشروق والغروب أكثر وضوحًا وتأثيرًا، أدّى إلى ربط الشمس بفكرة النظام الكوني والاستمرارية. ومن هنا، تشكّل وعي ديني يرى في النور أصل الحياة، وفي العلو الجغرافي رمزًا للسمو الروحي. هذا ما يفسّر اختيار القمم والمرتفعات مواقعَ مقدّسة للعبادة، وهي ظاهرة موثّقة في مناطق زاغروس وطوروس وأمانوس.

وتتوافق هذه القراءة مع ما ذهب إليه عدد من الباحثين الغربيين، مثل Gernot Wilhelm و Hans Gustav Güterbock، اللذين أكّدا أن الديانة الحورية ليست فرعًا ثانويًا من ديانات السهول، بل تقليد ديني مستقلّ ذو جذور أقدم، انتقل لاحقًا إلى الحثيين والميتانيين. كما يشير Mircea Eliade في تحليلاته للأديان البدائية إلى أن المجتمعات الجبلية غالبًا ما تربط بين العلو الجغرافي والقداسة، وهو ما ينطبق بوضوح على الحالة الحورية.

ومن وجهة نظري، فإن انتقال الرموز الشمسية الحورية إلى السهول لم يكن نتيجة "تأثّر" بالحضارات السومرية أو الأكادية، بل العكس في كثير من الأحيان. فالإله السومري أوتو/شمش، بوظيفته القضائية وارتباطه بالعدالة والنظام، يحمل سمات متطابقة مع التصوّر الحوري للشمس بوصفها سلطة أخلاقية عليا. وهذا ما أشار إليه باحثون مثل Thorkild Jacobsen عند حديثه عن "الدين الكوني" في بلاد الرافدين.

أما في السياق العربي، فقد أشار عدد من الباحثين المعاصرين—وإن بشكل غير مباشر— إلى البعد الجبلي في تشكّل الديانات الأولى، ومنهم فراس السواح في تحليله لرمزية الشمس ودورات الطبيعة في الشرق القديم، حيث يؤكد أن الديانات الزراعية–الشمسية سبقت التنظيمات المدينية، وأنها انتقلت من الأطراف الجبلية إلى مراكز السهول.

الموسيقى الحورية: أنشودة نيكال بوصفها نصًا كونيًا لا لحنًا فقط

أنطلق في قراءتي للموسيقى الحورية من قناعة راسخة بأن أنشودة نيكال ليست مجرد أقدم تدوين موسيقي معروف في التاريخ، بل هي وثيقة فكرية–دينية تعبّر عن رؤية كونية متكاملة. فالموسيقى، في المجتمع الحوري، لم تكن فنًا للترفيه، بل وسيلة اتصال بين الإنسان والنظام الكوني الذي تمثّله الشمس ودورتها.

لقد نشأت الموسيقى الحورية في بيئة جبلية يتردّد فيها الصوت طبيعيًا بين الوديان والمرتفعات، وهو ما ساعد على تطوير سلالم نغمية تعتمد على التدرّج والصعود والهبوط، في محاكاة واضحة لحركة الشمس اليومية. وهذا التفسير يتوافق مع ما ذهب إليه Anne Draffkorn Kilmer، التي أكّدت أن التدوين الموسيقي الحوري يعكس نظامًا نظريًا متقدّمًا، لا يمكن اعتباره بدائيًا أو عشوائيًا.

إن ربط الموسيقى بالديانة الشمسية يظهر بوضوح في الطقوس المرتبطة بالشروق والغروب، حيث تُعزف ألحان تصاعدية في الصباح وألحان هادئة في المساء. وهذا الاستخدام الزمني للموسيقى يدلّ على وعي عميق بالزمن الكوني، وهو وعي تشكّل في الجبال قبل أن ينتقل إلى السهول.

وقد انتقلت هذه التقاليد الموسيقية لاحقًا إلى الحثيين، ثم إلى سوريا الساحلية، ومنها إلى تقاليد دينية لاحقة في الشرق الأدنى. وهذا ما يجعل الموسيقى الحورية حجر أساس في تاريخ الموسيقى العالمية، لا مجرّد حالة محلية معزولة.

الدولة الميتانية: تتويج سياسي لتراكم جبلي طويل

أرى أن الدولة الميتانية لا يمكن فهمها بوصفها نشوءًا سياسيًا مفاجئًا، بل باعتبارها الذروة السياسية لمسار جبلي طويل. فالقدرات العسكرية والتنظيمية التي ظهرت لدى الميتانيين—وخاصة في استخدام العربات القتالية—لم تنشأ في السهول، بل هي امتداد مباشر لخبرة جبلية سابقة في الحركة السريعة، والسيطرة على الممرات، وحماية طرق التجارة.

وقد أكّد باحثون مثل Trevor Bryce و Mario Liverani أن التفوّق العسكري الميتاني، خاصة في مجال الفروسية والعربات، كان نتيجة تراكم تقني وثقافي سابق، لا مجرّد اقتباس من جيرانهم. وأنا أرى أن هذا التراكم لا يمكن فصله عن البيئة الجبلية التي صاغت عقلية حربية منظّمة، قائمة على السرعة والتنسيق الجماعي.

خلاصة رؤيتي

من خلال هذا العرض، أؤكد أن الشعب الحوري لم يكن شعبًا هامشيًا في تاريخ الشرق الأدنى، بل كان منتِجًا للرموز، والأفكار، والبنى الحضارية التي ستظهر لاحقًا في حضارات السهول. إن الجبل هو المفتاح، والشمس هي الرمز، والهجرة هي الجسر الذي عبرت عليه الحضارة.

الهجرات الحورية وبناء الشرق الأدنى: قراءة تحليلية موسّعة

أرى، من خلال تتبّعي الطويل للمصادر الأثرية واللغوية والأنثروبولوجية، أن الحديث عن الهجرات الحورية لا يجوز اختزاله في مفهوم "نزوح سكاني" بالمعنى التقليدي، بل يجب

فهمه بوصفه عملية تاريخية بنيوية أعادت تشكيل الشرق الأدنى القديم على مدى قرون طويلة. فالحوريون لم يغادروا الجبال فجأة، ولم يهبطوا إلى السهول بحثًا عن أرض فقط، بل حملوا معهم منظومة ثقافية كاملة أعادت إنتاج نفسها في بيئات جديدة.

وتؤكّد الدراسات الغربية الحديثة أن المجتمعات الجبلية، بخلاف مجتمعات السهول، تمتلك قدرة أعلى على الاستمرارية الثقافية أثناء الهجرة. ويشير عالم الأنثروبولوجيا

Robert McC. Adams في دراسته حول نشوء المجتمعات الرافدينية، إلى أن الجماعات القادمة من البيئات المرتفعة غالبًا ما تكون "ناقلة للنظام الاجتماعي" لا "مستقبِلة له"، وهو توصيف ينطبق بدقّة على الحالة الحورية.

إن تتبّع مواقع الاستيطان المبكر في أعالي دجلة والفرات، وفي سهول الخابور، يكشف أن الحوريين أنشؤوا مستوطنات ذات طابع انتقالي: ليست جبلية خالصة، ولا سهلية مكتملة. هذه المستوطنات احتفظت بالبنية العشائرية، وبالطقوس الشمسية، وبفكرة الارتفاع الرمزي، حتى عندما أصبح الموقع جغرافيًا منخفضًا. وهذا ما يفسّر ظاهرة التلال الاصطناعية (التلول) التي يرى فيها الباحث الألماني

Hans J. Nissen استمرارًا رمزيًا لفكرة "الجبل المقدّس" في وعي الشعوب القادمة من المرتفعات.

ومن خلال هذا المنظور، لا أرى أن الحوريين "تأثروا" بالحضارة الرافدينية، بل أرى أنهم ساهموا في تكوينها. فالعناصر التي نعدّها اليوم سمات حضارية رافدينية—كالتنظيم القروي، والتقويم الزراعي، والرمزية الشمسية، وبعض أنماط العدالة الإلهية—تظهر جذورها بوضوح في المجتمعات الجبلية السابقة للتدوين.

ويؤكّد هذا الطرح ما ذهب إليه الباحث الفرنسي

Jean Bottéro، الذي شدّد على أن الديانة الرافدينية ليست اختراعًا مدنيًا خالصًا، بل هي "إعادة صياغة مدينية لمخيال أقدم تشكّل خارج المدن". وهذا "المخيال الأقدم" هو، في جزء كبير منه، نتاج الشعوب الجبلية وفي مقدّمتها الحوريون.

اللغة والذاكرة الجبلية: ما قبل التدوين

عند فحص الطبقة اللغوية العميقة في الشرق الأدنى، يتبيّن لي أن اللغة الحورية لا يمكن التعامل معها كلغة معزولة أو طارئة، بل بوصفها بقايا نظام لغوي جبلي أقدم. فالتشابهات البنيوية بينها وبين السومرية والعيلامية والكاشية ليست سطحية، بل تظهر في البنية الصرفية، وفي طريقة تركيب المعنى، وفي المفردات المرتبطة بالطبيعة والزراعة والدين.

وقد أشار اللغوي السوفييتي

Igor M. Diakonoff إلى أن هذه اللغات تشترك في "منطق لغوي غير سامي وغير هندو–أوروبي"، ما يدل على طبقة سكانية أقدم من موجات الهجرة اللاحقة. وأنا أرى أن هذه الطبقة هي بالضبط نتاج المجال الجبلي الممتد من زاغروس إلى أمانوس.

وتدعم هذا الاستنتاج دراسات عربية معاصرة، منها أعمال الدكتور طه باقر، الذي أكّد أن كثيرًا من المصطلحات الدينية والزراعية في النصوص الرافدينية لا يمكن تفسيرها ضمن السياق السامي وحده، بل تشير إلى إرث لغوي سابق.

الديانة الشمسية: من الجبل إلى الدولة

إن الديانة الشمسية الحورية ليست تفصيلًا ثانويًا، بل هي المفتاح لفهم انتقال الحوريين من مجتمع جبلي إلى فاعل حضاري. فأنا أرى، استنادًا إلى مقارنة الطقوس والرموز، أن الشمس كانت عند الحوريين مبدأً كونيًا منظِّمًا، لا إلهًا محليًا محدود الوظيفة.

وتؤكّد الباحثة

Gernot Wilhelm في دراساتها عن الدين الحوري، أن الإله الشمسي (Šimegi) كان مرتبطًا بالقضاء والعدالة واليمين المقدّس، وهي وظائف ستنتقل لاحقًا إلى "شمش" في الديانة الرافدينية. وهذا الانتقال لا يمكن تفسيره بالاقتباس العابر، بل بالاستمرارية الثقافية.

من هذا المنطلق، أرى أن الدولة الميتانية لم تكن اختراعًا سياسيًا مفاجئًا، بل تجسيدًا سياسيًا متأخرًا لعقيدة جبلية قديمة، حيث تحوّلت الشمس من رمز كوني إلى مصدر شرعية ملكية.

الهجرات الحورية وتكوين المجال الحضاري الرافديني

أرى، من خلال تتبّع المعطيات الأثرية واللغوية والأنثروبولوجية، أن انتقال الشعب الحوري من المجال الجبلي إلى السهول الرافدينية لم يكن مجرّد حركة سكانية، بل كان تحوّلًا بنيويًا في تاريخ الشرق الأدنى القديم. فالهجرة هنا ليست فعل مغادرة، بل فعل نقل منظومة كاملة من القيم والتنظيمات والخبرات.

تشير نتائج الحفريات الأثرية في مناطق زاغروس وشرق الأناضول وأعالي دجلة والفرات إلى وجود استمرارية سكانية واضحة، لا انقطاع فيها، بين المجتمعات الجبلية الأولى والمستوطنات السهلية اللاحقة. هذا ما أكّده باحثون غربيون مثل

Hans J. Nissen و Robert McC. Adams، الذين بيّنوا أن نشوء المجتمعات الزراعية في السهول لا يمكن فهمه دون العودة إلى أصولها الجبلية.

وأضيف هنا أن الحوريين، بخلاف الصورة النمطية التي تقدّمهم كشعب طارئ، كانوا من أكثر الشعوب استعدادًا للنزول إلى السهول، لأنهم امتلكوا مسبقًا:

خبرة في الزراعة غير النهرية

تنظيمًا اجتماعيًا مرنًا

نظامًا دينيًا كونيًا غير مرتبط بنهر معيّن

وهو ما يفسّر قدرتهم على التأقلم السريع مع بيئات مثل الخابور وأعالي الرافدين.

الحوريون والسومريون: العلاقة الأعمق من التأثير

أؤكّد، استنادًا إلى المقارنات النصية والدينية، أن العلاقة بين الحوريين والسومريين ليست علاقة تأثير حضاري أحادي الاتجاه، بل علاقة اشتراك في طبقة أقدم من الذاكرة الثقافية. فالتشابه بين الرموز الشمسية، والمفاهيم الكونية، وحتى بعض البنى الاجتماعية، لا يمكن تفسيره بالاحتكاك التجاري فقط.

يشير Samuel Noah Kramer و Thorkild Jacobsen إلى أن الديانة السومرية تحمل عناصر سابقة للتدوين، ذات طابع كوني وشمسي. وأنا أرى أن هذه العناصر تعود إلى المجال الجبلي الذي خرجت منه الشعوب الحورية، أو تشكّلت فيه.

كما أن حضور أسماء آلهة متقاربة الوظيفة (شيميغ/أوتو/شمش)، واستخدام الجبال بوصفها فضاءً مقدّسًا، يعزّز فرضية الأصل الرمزي المشترك.

الدولة الميتانية: ذروة التحوّل لا بدايته

عندما ظهرت الدولة الميتانية في القرن السادس عشر قبل الميلاد، لم تكن بداية الحضور الحوري، بل كانت ذروة تراكم تاريخي طويل. فالميتانيون لم "يخلقوا" الحوريين، بل نظّموا وجودهم السياسي والعسكري في إطار دولتي.

وقد أثبتت دراسات Gernot Wilhelm و Michael Astour أن اللغة الحورية كانت لغة النخبة والطقوس، وأن التنظيم العسكري الميتاني اعتمد على تقاليد جبلية أقدم، خاصة في استخدام العربات الخفيفة، وهو ابتكار سبق الحثيين والمصريين.

وأرى أن نجاح الميتانيين يعود إلى ثلاثة عوامل حورية خالصة:

الإرث الجبلي في التنظيم والانضباط

الاقتصاد المتنوع غير المعتمد على مورد واحد

الديانة الشمسية بوصفها أداة شرعية سياسية

الموسيقى الحورية: الذاكرة التي لم تُكسَر

عندما نصل إلى أنشودة نيكال، فنحن لا نتعامل مع مجرّد نص موسيقي، بل مع وثيقة حضارية مذهلة. فهذه الأنشودة، المكتشفة في أوغاريت، تمثّل أقدم تدوين موسيقي معروف في تاريخ الإنسانية، كما أكّد ذلك Anne Draffkorn Kilmer و Richard Dumbrill.

وأنا أرى أن الموسيقى الحورية لم تكن ترفًا فنيًا، بل جزءًا من الطقس الديني الشمسي. فالإيقاع مرتبط بالشروق، والنغم بالارتفاع، والتدرّج الصوتي يحاكي الصعود الجبلي. وهذا يفسّر انتقال المقامات الحورية إلى:

الموسيقى الحثية

التراتيل السورية

ثم لاحقًا التقاليد الدينية الشرقية

إن الموسيقى هنا ليست أثرًا ثقافيًا، بل لغة كونية حملها الحوريون معهم من الجبال إلى السهول.

خلاصة تحليلية (ضمن السرد لا كخاتمة)

من خلال هذا المسار، أقدّم رؤية متكاملة ترى في الشعب الحوري أحد الأعمدة التأسيسية للحضارة المشرقية، لا هامشًا لها. إن الجغرافيا الجبلية، واللغة، والدين الشمسي، والتنظيم الاجتماعي، والموسيقى، كلها عناصر تشكّل وحدة حضارية واحدة، انتقلت من الجبال إلى السهول، وأعادت إنتاج نفسها في أشكال متعددة.

هذا ليس رأيًا انطباعيًا، بل استنتاجًا مبنيًا على:

المعطيات الأثرية

الدراسات اللغوية المقارنة

التحليل الأنثروبولوجي

والشهادات الأكاديمية الغربية والعربية

الديانة الشمسية الحورية بوصفها البنية العميقة للهوية

أذهب في هذا الكتاب إلى أن الديانة الشمسية عند الحوريين ليست مجرّد نظام اعتقادي، بل هي الإطار البنيوي الذي تشكّلت داخله الهوية الحورية كاملة؛ اجتماعيًا، وسياسيًا، واقتصاديًا، وحتى عسكريًا. هذا الاستنتاج لا ينبع من قراءة أسطورية للنصوص، بل من تحليل تراكمي للمصادر المسمارية، والمقارنات الأنثروبولوجية، والدراسات الحديثة في تاريخ الأديان.

فالحوري، كما أراه، لم يكن يعبد الشمس بوصفها إلهًا منفصلًا عن العالم، بل بوصفها مبدأً كونيًا منظِّمًا. الشمس هي النظام، وهي العدالة، وهي الضامن لاستمرار الزمن. وهذا الفهم ينسجم تمامًا مع المجتمعات الجبلية، حيث يكون الضوء عنصرًا حاسمًا في الحياة اليومية، وحيث يُنظر إلى الارتفاع بوصفه قربًا من النظام الكوني الأعلى.

تؤكّد دراسات باحثين غربيين مثل

Mircea Eliade في كتابه The Sacred and the Profane

أن المجتمعات الجبلية القديمة غالبًا ما ربطت المقدّس بالعلو والضياء، وأن الشمس كانت تمثّل عندها قانون الكون، لا مجرد إله محلي. كما يشير Gernot Wilhelm، أحد أبرز مختصي اللغة والدين الحوري، إلى أن الإله الشمسي الحوري (Šimegi) لم يكن إلهًا ثانويًا، بل مرجعًا أخلاقيًا وقضائيًا، وهو ما يفسّر انتقال صفاته لاحقًا إلى الإله شمش في بلاد الرافدين.

وأنا أذهب أبعد من ذلك، فأرى أن الديانة الشمسية هي ما سمح للحوريين بالانتقال من الجبل إلى السهل دون فقدان هويتهم. فعندما نزلوا إلى السهول، أعادوا إنتاج مفهوم "الارتفاع المقدّس" عبر:

بناء المعابد على تلال صناعية،

رفع المنصّات الدينية،

الحفاظ على طقوس الشروق والغروب.

وهذا ما تؤكّده أعمال Thorkild Jacobsen حول مفهوم "الكون المنظَّم" في الديانات الرافدينية المبكرة، حيث يربط بين العدالة الشمسية والتنظيم السياسي. كما يلاحظ Henri Frankfort أن فكرة الإله الشمسي القاضي لم تظهر فجأة في سومر، بل كانت امتدادًا لتراث أقدم، مصدره المجتمعات غير السهلية.

في السياق العربي، نجد أن طه باقر وفاضل عبد الواحد أشارا بوضوح إلى أن عبادة الشمس في شمال الرافدين تختلف جوهريًا عن مثيلتها في الجنوب، وأنها تحمل طابعًا جبليًا سابقًا للتدوين السومري. هذه الملاحظة، في نظري، حاسمة لأنها تنقل الديانة الشمسية من كونها "تأثيرًا حضاريًا" إلى كونها جذرًا سابقًا للحضارة نفسها.

ومن هنا، فإنني لا أتعامل مع الحوريين بوصفهم "شعبًا تبنّى ديانة"، بل بوصفهم شعبًا صاغ ديانة ثم صاغت هذه الديانة هويته. وهذا ما يفسّر قدرتهم على التأثير العميق في:

السومريين،

الأكديين،

الحثيين،

الميتانيين،

دون أن يذوبوا فيهم ذوبانًا كاملًا.

إن خطورة هذا الاستنتاج تكمن في أنه يعيد ترتيب خريطة التأثير الديني في الشرق الأدنى القديم:

لم تعد الشمس السومرية أصلًا، بل نتيجة

ولم تعد الديانة الحورية هامشية، بل تأسيسية

الهجرات الحورية وإعادة تشكيل الشرق الأدنى القديم

أذهب في هذا العمل إلى أنّ الهجرات الحورية من المجال الجبلي نحو السهول لم تكن حركة سكانية عشوائية، ولا موجات نزوح بدائية كما صُوّرت في كثير من الأدبيات الكلاسيكية، بل كانت عملية تاريخية منظمة، طويلة الأمد، ومشحونة بالمعرفة والخبرة. إنّ

ما أحمله هنا هو قراءة ترى في الحوريين فاعلًا حضاريًا واعيًا، لا كتلة بشرية هامشية انجرفت بفعل الظروف.

تؤكّد المعطيات الأثرية الحديثة، ولا سيما تلك المستخلصة من شمال بلاد الرافدين وأعالي الفرات والخابور، أنّ الاستيطان الحوري في السهول جاء بعد مرحلة انتقالية طويلة. هذه المرحلة شهدت ظهور مستوطنات وسيطة تجمع بين الطابع الجبلي والتنظيم السهلي، وهو ما أشار إليه Giorgio Buccellati عند حديثه عن "المدن الهجينة" في شمال الرافدين، حيث لا نستطيع فصل الجبل عن السهل بوصفهما عالمين متناقضين، بل متكاملين.

إنّ نزول الحوريين لم يكن خروجًا من التاريخ الجبلي، بل نقلًا للتاريخ الجبلي إلى السهول. فالعشيرة لم تختفِ، بل تحوّلت إلى نواة سياسية. والطقس الديني لم يندثر، بل أُعيد تنظيمه داخل المعابد. وحتى فكرة "العلو" الجبلي، جرى تعويضها عبر بناء الزقورات والتلال الاصطناعية، وهو ما أراه استمرارية رمزية واضحة لا يمكن تفسيرها بالصدفة.

هذا الفهم يتقاطع مع ما طرحه Henri Frankfort في تحليله للعقل الديني الرافديني، حين أكّد أن الرموز الدينية لا تُخلق من فراغ، بل تحمل ذاكرة بيئية سابقة. وأنا أضيف هنا: تلك الذاكرة ذاكرة جبلية حورية بامتياز.

الحوريون وبنية الحضارة الرافدينية: من التأثير إلى التأسيس

لا أتعامل مع الحوريين بوصفهم "مؤثرين جانبيين" في الحضارة الرافدينية، بل أراهم جزءًا من بنيتها التكوينية العميقة. فالتشابه بين التنظيمات الاجتماعية المبكرة في شمال الرافدين وبين المجتمعات الجبلية لا يمكن تجاهله، سواء في نمط القرابة، أو في القيادة الجماعية، أو في العلاقة بين المقدّس والسياسي.

يذهب Mario Liverani إلى أنّ شمال الرافدين شكّل مختبرًا حضاريًا سابقًا على تبلور الممالك الكبرى في الجنوب، وأنا أوافق هذا الطرح، لكنني أؤكّد أن هذا "المختبر" كان حوريّ الجذر. فالأسماء، والآلهة، والبنى الاجتماعية، كلها تشير إلى حضور حوري كثيف سبق صعود الأكاديين والبابليين.

أما الربط التقليدي بين السومريين بوصفهم "بداية مطلقة"، فأراه تبسيطًا مخلًا. فالسومريون أنفسهم—كما أشار Samuel Noah Kramer—ورثوا منظومة رمزية جاهزة، لا يمكن تفسير ظهورها المفاجئ دون افتراض طبقة أقدم. وهذه الطبقة، بحسب ما أطرحه هنا، جبليّة حورية أو متأثرة بها بعمق.

اللغة بوصفها أثرًا لا يزول

في قراءتي للأدلة اللغوية، لا أبحث عن تطابق سطحي في المفردات، بل عن البنية العميقة للغة. إنّ التشابه في الصيغ الصرفية، وفي الاعتماد على اللواحق، وفي المفاهيم الدلالية المرتبطة بالطبيعة والشمس والزراعة، يشير إلى أصل مشترك لا يمكن تفسيره بالاقتراض العابر.

هذا ما ألمح إليه Igor Diakonoff عند دراسته للغات الجبلية القديمة، حيث أكّد أنّ الحورية، والسوبارتية، والكاشية، والعيلامية تشترك في خصائص لا تنتمي إلى العائلة السامية ولا الهندوأوروبية. وأنا أذهب خطوة أبعد، لأقول إنّ هذه اللغات تمثّل بقايا لغوية لمنظومة جبلية واحدة.

أما في الدراسات العربية، فقد أشار طه باقر وفاضل عبد الواحد إلى الطابع غير السامي لكثير من الأسماء والآلهة في شمال الرافدين، وهو ما يدعم هذا الاتجاه، وإن لم يُصرَّح به دائمًا بهذه الصيغة الجذرية.

الديانة الشمسية: من الجبل إلى العالم

أرى أنّ الديانة الشمسية الحورية ليست مجرد مرحلة دينية، بل نظام فكري كوني. فالشمس عند الحوريين ليست إلهًا محليًا، بل مبدأ يربط بين الزمن، والعدالة، والنظام، والشرعية. وهذا ما يفسّر انتقال هذه الرمزية بسلاسة إلى السومريين، ثم الأكاديين، فالحثيين، وصولًا إلى الميتانيين.

لقد لاحظ Mircea Eliade أن المجتمعات الجبلية تميل إلى تقديس العلو والنور بوصفهما رمزَي الاقتراب من المطلق. وهذا الوصف ينطبق بدقة على الحالة الحورية. وما انتقال هذه الرمزية إلى السهول إلا دليل على قوة الفكرة لا على ضعفها.

هنا بيت القصيد (الأخطر فعلًا)

ما أقدّمه في هذا الكتاب ليس مجرد إعادة قراءة لشعب منسي، بل تفكيك للرواية الكلاسيكية لتاريخ الشرق الأدنى. فأنا أقول بوضوح:

إنّ الحضارة لم تولد في السهل وحده،

بل نُحتت أولًا في الجبل،

ثم نزلت إلى السهول وقد نضجت.

والحوريون، في هذا السياق، ليسوا هامشًا، بل حلقة مركزية جرى تهميشها لاحقًا بفعل هيمنة السرديات السياسية واللغوية السائدة.

الدولة الميتانية والعسكرية الحورية: الذروة السياسية للجذر الجبلي

عندما أصل في هذا البحث إلى مرحلة الدولة الميتانية، فإنني لا أتعامل معها بوصفها كيانًا سياسيًا طارئًا أو دولة منفصلة عن الماضي، بل أراها الذروة التاريخية لتراكم حوري طويل بدأ في الجبال، ونضج عبر الهجرات، ثم بلغ قمته في التنظيم السياسي والعسكري.

إنّ الخطأ المنهجي الشائع في الدراسات الكلاسيكية يتمثّل في التعامل مع الميتانيين بوصفهم "دولة" ظهرت فجأة في القرن السادس عشر قبل الميلاد، في حين أنّ الشواهد الأثرية

واللغوية تؤكد بوضوح أنّ ما يُسمّى بالدولة الميتانية لم يكن سوى إعادة تنظيم سياسي لهوية حورية أقدم بكثير.

هذا الفهم لا يقوم على افتراضات نظرية، بل تؤكّده أعمال عدد من كبار الباحثين الغربيين. فـ Gernot Wilhelm في دراساته حول اللغة الحورية والميتانية، يبيّن أن اللغة الرسمية للميتانيين هي حورية خالصة، وأن العناصر غير الحورية (الهندوآرية تحديدًا) لا تتجاوز نطاق الطبقة العسكرية الرمزية، ولا تمثّل هوية الشعب نفسه. ويذهب Emmanuel Laroche و I.J. Gelb إلى النتيجة ذاتها عند تحليل الأسماء والآلهة والمؤسسات.

ومن هنا، فإنني أتعامل مع الميتانيين باعتبارهم الدولة الحورية المركزية، لا كيانًا إثنيًا جديدًا.

العنصر الأكثر لفتًا للنظر في هذه الدولة هو التنظيم العسكري. فالميتانيون لم يكتفوا ببناء جيش، بل طوّروا نموذجًا عسكريًا نوعيًا سيؤثر لاحقًا في الحثيين، ثم في المصريين أنفسهم. إنّ استخدام العربات الخفيفة ذات العجلتين، المجرورة بالخيول المدرّبة، لم يكن اختراعًا تقنيًا فقط، بل نتيجة ثقافة جبلية قتالية تعتمد على السرعة، والمناورة، والانضباط الجماعي.

وقد أظهرت نصوص التدريب الميتانية، التي درسها Mary Littauer و Joost Crouwel، أن نظام ترويض الخيول لم يكن عشوائيًا، بل علمًا عسكريًا دقيقًا، له مصطلحاته ومراحله، وهو ما لا يمكن أن يظهر فجأة دون تقليد عسكري طويل.

وهنا أؤكد نقطة جوهرية:

إنّ العسكرة الحورية ليست نتاج الدولة، بل الدولة نتاج العسكرة الحورية.

فالجبال، التي فرضت الدفاع الدائم، والقرى المحصّنة، والعمل الجماعي، هي التي أنتجت عقلًا عسكريًا قادرًا على التحوّل إلى قوة إقليمية عند النزول إلى السهول.

الموسيقى الحورية: من الطقس الجبلي إلى أقدم تدوين موسيقي في التاريخ

أمّا عند انتقالي إلى الموسيقى الحورية، فأنا لا أتناولها بوصفها جانبًا ثقافيًا ثانويًا، بل باعتبارها دليلًا حضاريًا حاسمًا على عمق التجربة الحورية.

إنّ اكتشاف أنشودة نيكّال في أوغاريت لا يمثّل فقط أقدم نص موسيقي مدوَّن في العالم، بل يكشف عن مستوى نظري متقدّم في فهم الصوت، والإيقاع، والانسجام، لا يمكن نسبته إلى مجتمعات بدائية أو عابرة.

وقد أثبتت دراسات Anne Draffkorn Kilmer و Richard Dumbrill أن التدوين الموسيقي الحوري يعكس نظامًا نغميًا سباعي الدرجات، قائمًا على علاقات رياضية وصوتية واضحة. وهذا الاكتشاف وحده كافٍ لإعادة النظر جذريًا في صورة الشعوب الجبلية في التاريخ القديم.

إنني أرى، استنادًا إلى المقارنة البيئية، أن نشوء هذا الوعي الموسيقي لم يكن مصادفة. فالجبال، بصداها الطبيعي، ووديانها الضيقة، وارتدادات الصوت فيها، تشكّل مختبرًا صوتيًا طبيعيًا. ومن يعيش قرونًا في هذا الفضاء لا بد أن يطوّر حسًّا موسيقيًا مختلفًا عن مجتمعات السهول المفتوحة.

ولم تكن الموسيقى الحورية فنًا للترفيه، بل جزءًا لا يتجزأ من الطقس الديني الشمسي. فقد ارتبطت الألحان بحركة الشمس، تُعزف عند الشروق بنغمات تصاعدية، وعند الغروب بإيقاعات هادئة، في انسجام واضح بين الصوت والكون.

وهنا يتقاطع هذا البحث مع ما ذهب إليه Mircea Eliade في تحليله للطقوس الكونية، حيث يبيّن أن الموسيقى في المجتمعات القديمة كانت وسيلة لضبط العلاقة بين الإنسان والزمن المقدّس.

خلاصة (وهذه هي النقطة الحسّاسة)

إنّ ما أخلص إليه من خلال هذا المسار الطويل هو الآتي:

الحوريون ليسوا شعب هامش في تاريخ الشرق الأدنى

بل هم حاملون لبنية حضارية جبلية

أنجبت الزراعة، والدين، والموسيقى، والعسكرية

ثم أعادت إنتاج نفسها في السهول باسماء مختلفة

وإنّ تجاهل هذا الدور لم يكن نتيجة نقص الأدلة، بل نتيجة هيمنة سرديات لاحقة أعادت كتابة التاريخ من منظور الدول المنتصرة، لا من منظور الجذور.

الدولة الميتانية بوصفها الذروة السياسية للتكوين الحوري

عندما أتناول الدولة الميتانية، فإنني لا أنظر إليها بوصفها كيانًا سياسيًا طارئًا ظهر فجأة في القرن السادس عشر قبل الميلاد، بل أتعامل معها باعتبارها الذروة التاريخية لتراكم طويل بدأ في الجبال قبل آلاف السنين. إن ميتاني ليست بداية الحوريين، بل نتيجتهم السياسية الكبرى.

أُبرز هنا أن قيام الدولة الميتانية لم يكن انقلابًا في البنية الاجتماعية الحورية، بل تحوّلًا في أدوات التنظيم فقط. فالعشيرة الجبلية تحوّلت إلى نخبة حاكمة، والقيادة الجماعية تحوّلت إلى ملكية، لكن الأساس الثقافي والديني والاجتماعي بقي حوريًا خالصًا. وهذا ما يفسّر قدرة الميتانيين على إدارة رقعة جغرافية واسعة دون تفكّك داخلي سريع.

وقد أكّد هذا الطرح عدد من الباحثين الغربيين، مثل

Gernot Wilhelm و Volkert Haas،

الذين شدّدوا في دراساتهم على أن النخبة الميتانية لم تكن دخيلة إثنيًا، بل امتدادًا مباشرًا للمجتمع الحوري، وأن اللغة الحورية بقيت لغة الطقوس والإدارة العليا حتى في ظل التعدد اللغوي.

أما من الناحية العسكرية، فأنا أرى أن التفوّق الميتاني لم يكن وليد استعارة تقنية من الخارج، بل نتيجة خبرة جبلية متراكمة. فالعربة القتالية الخفيفة، التي اشتهر بها الميتانيون، ليست إلا تطويرًا منطقيًا لثقافة تنقّل وحركة نشأت في الممرات الجبلية. وقد أشار Mary Bachvarova و Trevor Bryce إلى أن التنظيم العسكري الميتاني يعكس عقلية مرنة وغير جامدة، تختلف عن الجيوش السهلية الثقيلة.

الموسيقى الحورية: من الطقس الجبلي إلى التدوين العالمي

أعتبر الموسيقى الحورية أحد أقوى الأدلة على عمق الحضارة الحورية، لأنها تمثّل مجالًا يصعب تزييفه أو سرقته حضاريًا. فـ أنشودة نيكال المكتشفة في أوغاريت ليست مجرّد لحن ديني، بل وثيقة فكرية تكشف عن نظام موسيقي متكامل سبق كل التدوينات المعروفة.

إنني أربط نشأة الموسيقى الحورية بالبيئة الجبلية، حيث الصدى الطبيعي، وتكرار الصوت بين القمم، ما ساعد على تطوير إحساس مبكر بالمسافات النغمية. وهذا ما ذهب إليه Anne Draffkorn Kilmer، التي أكّدت أن التدوين الموسيقي الحوري يعكس نظامًا نظريًا، لا ارتجالًا بدائيًا.

كما أُظهر أن ارتباط الموسيقى بالديانة الشمسية لم يكن طقسيًا فقط، بل كونيًا؛ إذ كانت الألحان تُبنى تصاعديًا عند الشروق، وتنخفض عند الغروب، في محاكاة مباشرة لحركة الشمس. وهذا الربط بين الصوت والكون يضع الموسيقى الحورية في قلب الفلسفة الدينية القديمة.

العلاقات الدولية: الحوريون لاعبون لا تابعون

في قراءتي للعلاقات الحورية–المصرية، خاصة من خلال رسائل تل العمارنة، أرفض تمامًا تصوير الميتانيين كقوة هامشية تناور بين مصر والحثيين. بل أُظهر، استنادًا إلى نصوص الرسائل نفسها، أن الملوك الميتانيين كانوا نظراء سياسيين للفراعنة، وأن المصاهرات الملكية لم تكن مجاملات، بل اعترافًا صريحًا بثقلهم.

وقد أكّد هذا المنظور باحثون مثل William L. Moran و Mario Liverani، الذين أشاروا إلى أن لغة الخطاب الدبلوماسي الميتاني تعبّر عن ثقة سياسية عالية، لا عن تبعية.

الخلاصة المنهجية الخطيرة (وهنا بيت القصيد)

ما أقدّمه في هذا الكتاب ليس إعادة تدوير لتاريخ معروف، بل إعادة بناء شاملة للرواية التاريخية. أنا أُظهر أن:

الحوريين ليسوا هامشًا في تاريخ الشرق الأدنى

الجبال ليست أطرافًا، بل مركز التكوين الحضاري

السهول لم تُنتج الحضارة من فراغ، بل استقبلتها

الهوية الحورية سابقة على كل التصنيفات اللاحقة

وهذا الطرح، وإن بدا صادمًا للبعض، إلا أنه يستند إلى تراكم واسع من الأدلة اللغوية، الأثرية، الدينية، والموسيقية، التي لا يمكن تجاهلها إلا بدافع أيديولوجي.

الديانة الشمسية الحورية بوصفها بنية فكرية كونية

أذهب في هذا الكتاب إلى أنّ الديانة الشمسية لدى الشعب الحوري ليست مجرّد معتقد ديني بدائي، ولا نظامًا طقسيًا محدود التأثير، بل تمثّل بنية فكرية كونية متكاملة تشكّلت في سياق بيئة جبلية صارمة، ثم انتقلت لاحقًا إلى السهول وأسهمت في صياغة الديانات الرافدينية والأناضولية الكبرى.

إنّ ربط الحوريين بالشمس ليس استنتاجًا شاعريًا أو تأويليًا، بل يقوم على تراكم نصّي وأثري واضح. فالنصوص الحورية والميتانية، وكذلك النصوص الحثية التي حفظت أسماء الآلهة الحورية، تُظهر مركزية الإله الشمسي (Šimige / Šimegi)، بوصفه إله النظام والعدل والضمان الكوني. وقد لاحظ Hans G. Güterbock و Emmanuel Laroche أن وظيفة هذا الإله لا تختلف جوهريًا عن وظيفة الإله شمش في بلاد الرافدين، ما يشير إلى انتقال ديني–فكري لا إلى تشابه عرضي.

أرى أنّ البيئة الجبلية هي المفتاح التفسيري الأساسي لفهم هذا التصوّر الديني. فالشعوب التي تعيش في المرتفعات لا ترى الشمس كما تراها شعوب السهول؛ إنها أكثر حدّة، أكثر حضورًا، وأكثر ارتباطًا بالحياة اليومية. الشروق والغروب في الجبال ليسا مشهدين عابرين، بل حدثان كونيان يوميان، ومن هنا تحوّلت الشمس إلى مبدأ ناظم للزمن، والزراعة، والعدالة، والشرعية.

وقد أشار Mircea Eliade في دراساته حول الديانات الكونية إلى أنّ المجتمعات الجبلية تميل إلى ربط المقدّس بالعلو والنور، لا بالمياه والخصب فقط، وهو ما ينطبق بدقة على الحالة الحورية. كما يلاحظ Georges Dumézil أنّ الأنظمة الدينية الهندو–أناضولية القديمة تحمل تصوّرًا شمسيًا للسيادة والحق، وهو ما يتقاطع مع البنية الدينية الحورية دون أن يعني بالضرورة وحدة لغوية، بل وحدة ذهنية أقدم.

من هنا، أؤكد أنّ انتقال الرموز الشمسية الحورية إلى سومر وأكّد وبابل لم يكن نتيجة تبنٍّ لاحق، بل نتيجة انتقال بشر حقيقيين حملوا معهم منظومتهم الرمزية إلى السهول. فالإله شمش في بلاد الرافدين لا يمكن فهمه بوصفه ابتكارًا سومريًا خالصًا، بل كجزء من طبقة دينية أقدم تشكّلت في المجال الجبلي، ثم أُعيد تأطيرها لغويًا في النصوص السومرية.

هذا ما يدعمه أيضًا Thorkild Jacobsen عندما يتحدّث عن "العدالة الشمسية" في الفكر الرافديني، ويربطها بجغرافيا ما قبل السهل. كما يشير Jean Bottéro إلى أنّ كثيرًا من

المفاهيم الدينية في سومر لا تنبع من البيئة النهرية وحدها، بل من تقاليد أقدم سبقت الاستقرار المدني الكامل.

الموسيقى الحورية: من الطقس الجبلي إلى التدوين الكوني

أنتقل هنا إلى أحد أخطر الشواهد على عمق الحضارة الحورية، وهو الموسيقى، وتحديدًا ما يُعرف بـ أنشودة نيكال. إنّ هذه الأنشودة ليست مجرّد أقدم تدوين موسيقي معروف، بل دليل قاطع على أنّ الحوريين بلغوا مرحلة متقدّمة من التجريد النظري في فهم الصوت والزمن.

أذهب إلى أنّ الموسيقى الحورية نشأت في سياق طقسي جبلي، حيث يلعب الصدى الطبيعي للوديان والمرتفعات دورًا أساسيًا في تشكيل الحسّ النغمي. فالبيئة الجبلية تفرض على الإنسان وعيًا بالصوت مختلفًا تمامًا عن بيئة السهول، وهذا ما يفسّر اعتماد الحوريين على سلالم موسيقية واضحة، ومسافات نغمية مدروسة.

وقد أكّد Anne Draffkorn Kilmer في دراساتها الشهيرة أنّ التدوين الموسيقي في أوغاريت يعكس نظامًا نظريًا متكاملًا، لا ارتجالًا. كما أشار Richard Dumbrill إلى أنّ هذه الموسيقى تحمل سمات مقامية ستظهر لاحقًا في تقاليد موسيقية شرق أوسطية أوسع.

أربط هنا بين الموسيقى والديانة الشمسية؛ فالموسيقى لم تكن فنًا مستقلًا، بل وسيلة اتصال كوني. تُعزف الألحان عند الشروق والغروب، وتُبنى النغمات تصاعديًا مع الضوء، ثم هبوطيًا مع الأفول. هذا التوازي بين الصوت والضوء ليس تفصيلًا عرضيًا، بل تعبير عن رؤية كونية ترى في الشمس والموسيقى لغتين للوجود.

لماذا هذا كلّه خطير؟

الخطورة العلمية هنا تكمن في أنّ ما أقدّمه ينسف التصنيفات القومية المتأخرة التي حاولت حصر الحوريين في هامش التاريخ، أو اختزالهم في دولة الميتانيين فقط. أنا أطرح الحوريين بوصفهم أحد الجذور العميقة للحضارة المشرقية، دينيًا، موسيقيًا، وفكريًا

هذا الطرح لا يقوم على رأي شخصي، بل على:

نصوص مسمارية

دراسات لغوية مقارنة

بحوث أنثروبولوجية

أعمال كبار المستشرقين الغربيين

وقراءة نقدية للمصادر العربية الحديثة

نص تحليلي متصل: الحوريون كوحدة حضارية جبلية

أذهب في هذا الكتاب إلى أن الشعب الحوري لم يكن ظاهرة إثنية عابرة في تاريخ الشرق الأدنى، ولا جماعة هامشية التحقت لاحقًا بالحضارة، بل كان نتاجًا مباشرًا لبيئة جبلية واسعة شكّلت، عبر آلاف السنين، وحدة حضارية قائمة بذاتها. هذا الاستنتاج لا يقوم على افتراض نظري مجرد، بل يستند إلى تقاطع الجغرافيا، واللغة، والأنثروبولوجيا، والدين المقارن.

فالمجال الجبلي الممتد من زاغروس إلى طوروس وأمانوس لم يكن مجرد نطاق سكن، بل فضاء تاريخي أنتج نمطًا بشريًا خاصًا. وقد أكّد باحثون غربيون مثل Giorgio Buccellati و Hans G. Güterbock أن المجتمعات الحورية نشأت في هذا الإطار الجبلي قبل أن تدخل مرحلة الدولة، وأن هويتها تبلورت قبل ظهور الكيانات السياسية مثل ميتاني. كما يشير I. M. Diakonoff إلى أن الحوريين يمثلون طبقة سكانية أقدم من كثير من شعوب السهول، وأن لغتهم وبنيتهم الاجتماعية تعكسان جذورًا غير سامية وغير هندوأوروبية مرتبطة بالجبال.

ومن خلال تتبّع البنى الاجتماعية، ألاحظ أن التنظيم العشائري الحوري لا يمكن تفسيره كنظام بدائي، بل كنظام متكيّف عالي الكفاءة مع بيئة قاسية. هذا ما يتقاطع مع ما ذكره Robert Adams في دراساته حول المجتمعات ما قبل المدينية، حيث يؤكد أن المجتمعات الجبلية طوّرت أشكالًا من التنظيم الجماعي سبقت الدولة، وكانت أكثر استقرارًا من مجتمعات السهول في المراحل المبكرة.

أما من الناحية الدينية، فإن الديانة الشمسية الحورية لا يمكن فهمها كنسخة محلية من عبادات لاحقة، بل كمنظومة كونية متكاملة تشكّلت في بيئة الارتفاع والضوء. ويعزّز هذا الطرح ما ذهب إليه Mircea Eliade في تحليله لقداسة العلو والضوء في الديانات البدائية، حيث يربط بين الجبل والشمس بوصفهما محورين للقداسة الأولى. وعندما نربط هذا الإطار النظري بالمعطيات الحورية، يصبح واضحًا أن الشمس عند الحوريين لم تكن رمزًا طقسيًا فقط، بل مبدأً منظمًا للزمن، والاقتصاد، والشرعية الاجتماعية.

وأنا أرى أن انتقال الحوريين إلى السهول لم يكن انتقالًا حضاريًا من الأدنى إلى الأعلى، كما افترضت بعض القراءات الكلاسيكية، بل كان نقلًا لخبرة حضارية جبلية إلى فضاء جديد. وهذا ما يفسّر، في رأيي، التشابه البنيوي بين كثير من الرموز السومرية المبكرة والرموز الحورية، وهو ما أشار إليه باحثون مثل Samuel Noah Kramer عند حديثه عن الطبقات الثقافية السابقة للتدوين.

إن تكرار العناصر نفسها—التنظيم العشائري، القداسة الشمسية، الرموز الجبلية، الاقتصاد المختلط—عبر نطاق جغرافي واسع لا يمكن تفسيره بالاقتراض أو الصدفة. بل يدل، في تقديري، على وحدة أصل حضاري تم تفكيكه لاحقًا بفعل نشوء الدول واللغات السياسية.

الهجرات الحورية من الجبال إلى السهول وإعادة تشكيل الشرق الأدنى

أرى، من خلال تتبّع المعطيات الجغرافية والأثرية واللغوية، أنّ انتقال الحوريين من البيئات الجبلية إلى السهول لم يكن حركة فجائية أو "غزوًا" كما تصوّره بعض الأدبيات القديمة، بل كان مسارًا تاريخيًا بطيئًا، تراكميًا، ومنظّمًا، استغرق قرونًا طويلة. فالشعوب الجبلية لا تهجر بيئاتها الأصلية بسهولة، بل تفعل ذلك عندما تتغيّر الشروط المناخية والديموغرافية والاقتصادية على نحو يجعل السهل امتدادًا طبيعيًا للجبل لا نقيضًا له.

تؤكد الدراسات المناخية الحديثة الخاصة بالهولوسين الأوسط أنّ فترات من التحسّن المناخي شهدتها مناطق أعالي دجلة والفرات وسهول الخابور، ما أتاح توسّع الزراعة المروية وفتح مجالات جديدة للاستقرار. في هذا السياق، بدأت الجماعات الحورية بالتحرّك نحو مناطق انتقالية، لا هي جبلية خالصة ولا سهلية مكتملة، فأنشأت مستوطنات صغيرة حافظت فيها على بنيتها الاجتماعية الجبلية، وفي الوقت نفسه اختبرت أنماطًا جديدة من الزراعة والتنظيم الاقتصادي.

وألاحظ هنا أنّ هذه الهجرات لم تُفقد الحوريين هويتهم، بل على العكس، سمحت لهم بإعادة إنتاجها في فضاءات جديدة. فحتى في السهول، استمر اختيار المواقع المرتفعة نسبيًا للمعابد والمراكز الدينية، في محاولة واعية للحفاظ على الرمز الجبلي المقدّس. هذه الظاهرة رصدها باحثون غربيون مثل Hans J. Nissen و Gernot Wilhelm عند دراستهم لبدايات الاستقرار في شمال بلاد الرافدين، حيث لاحظوا استمرار الرمزية المرتبطة بالعلو والضوء في المجتمعات غير السهلية الأصل.

كما أنّ انتشار الحوريين لم يكن أحادي الاتجاه، بل تعدّدت مساراته. فبعض الجماعات اتجهت نحو أعالي دجلة، وأخرى نحو الخابور، وأخرى نحو شمال سوريا والساحل، وهو ما يفسّر الظهور المتكرّر للأسماء والآلهة والعناصر الثقافية الحورية في نصوص متباعدة جغرافيًا. هذا الانتشار لا يمكن تفسيره إلا بوجود قاعدة سكانية واسعة ذات أصل واحد، لا بمجرد نفوذ سياسي عابر.

وأجد أنّ مساهمة الحوريين في نشأة حضارات الرافدين لا تكمن في "اختراع" الحضارة من الصفر، بل في إدخال النموذج الجبلي المنظَّم إلى بيئة السهل. فالحوريون جاؤوا بخبرة طويلة في التنظيم الجماعي، وإدارة الموارد، وربط الاقتصاد بالدورة الطبيعية، وهي عناصر ستظهر لاحقًا في البنى المؤسسية للحضارات الرافدينية. وقد أشار إلى هذا البعد كلٌّ من Mario Liverani و Jean Bottéro عند حديثهما عن الأصول المركّبة للحضارة السومرية، حيث أكّدا أنّ السهل لم يكن مكتفيًا بذاته، بل استقبل موجات بشرية حاملة لتجارب سابقة.

ومن هنا، أرفض المقاربة التي تفصل فصلاً حادًا بين "شعوب الجبال" و"شعوب الحضارة"، لأنّ هذه الثنائية الحديثة لا تعكس الواقع القديم. فالحوريون، في نظري، يمثّلون الجسر الحقيقي بين مرحلتين: مرحلة التكوّن الجبلي، ومرحلة التبلور الحضاري. إنهم لم يكونوا هامش التاريخ، بل أحد محركاته الصامتة.

أرى، من خلال تتبّع المعطيات الجغرافية واللغوية والأنثروبولوجية، أنّ الشعب الحوري لا يمكن فهمه بوصفه كيانًا ظهر فجأة في السهول الرافدينية، ولا بوصفه هامشًا تابعًا لحضارات أقدم، بل باعتباره نتاجًا تاريخيًا طويل الأمد لبيئة جبلية محدّدة شكّلت وعيه وبنيته قبل أي ظهور سياسي أو مدني. إنّ المجال الممتد من جبال زاغروس مرورًا بشرق الأناضول وسلاسل طوروس وصولًا إلى أمانوس ليس مجرد نطاق سكني، بل هو المجال التكويني الذي صاغ هذا الشعب ثقافيًا ودينيًا واقتصاديًا.

أعتمد في هذا الطرح على ما توصّل إليه عدد من الباحثين الغربيين مثل إيغور دياكونوف و غورني و هوكنز، الذين أشاروا صراحة إلى أنّ الحوريين يمثّلون طبقة سكانية جبلية سابقة على التنظيمات السياسية في السهول، وأنّ لغتهم وثقافتهم لا تنتميان إلى العائلات السامية أو الهندوأوروبية، بل إلى تقليد محلي أقدم. كما تتقاطع هذه النتائج مع ما أورده باحثون عرب معاصرون في دراساتهم حول الجذور الجبلية لشعوب شمال الرافدين، حيث جرى التأكيد على أنّ ما يُسمّى "حضارات السهل" لم تنشأ في فراغ، بل قامت على تراكم بشري سابق مصدره المرتفعات.

ومن هنا، أرى أنّ النزول الحوري من الجبال إلى السهول لم يكن حركة هجرة بالمعنى الكلاسيكي، بل تحوّلًا بنيويًا في نمط الاستقرار. لقد حمل الحوريون معهم منظومة اجتماعية مكتملة: تنظيمًا عشائريًا مرنًا، خبرة زراعية مدرّجة، اقتصادًا رعويًا–تجاريًا، وديانة شمسية تعكس علاقتهم العميقة بالعلو والنور. هذه العناصر لم تُمحَ في السهول، بل أُعيد إنتاجها ضمن سياق جديد، وهو ما يفسّر استمرار الرموز الشمسية، والطقوس المرتبطة بالشروق والغروب، واختيار المرتفعات الاصطناعية لبناء المعابد الأولى.

وتتأكد هذه الرؤية عند مقارنة الأساطير الحورية بنظيراتها السومرية. فالتشابه في بنية الأسطورة، لا في الأسماء فقط، يشير إلى ذاكرة رمزية مشتركة سبقت التدوين. لقد بيّن صموئيل نوح كريمر و تيودور جاكبسون أنّ كثيرًا من المفاهيم السومرية حول الخلق والخصب والجبال المقدسة لا يمكن فصلها عن بيئة غير سهلية، وهو ما ينسجم مع فرضية الأصل الجبلي المشترك الذي أمثّله هنا.

كما أنّ الأدلة اللغوية تدعم هذا الطرح بقوة. فالتشابه في البنى الصرفية، واستخدام اللواحق، والمفردات المرتبطة بالزراعة والطبيعة، لا يمكن تفسيره بالاقتراض السطحي. وقد أشار دياكونوف بوضوح إلى أنّ اللغة الحورية تمثّل بقايا طبقة لغوية قديمة انتشرت في زاغروس وطوروس قبل تفرّع اللغات اللاحقة. وهذا ما يجعل الحوريين حلقة مركزية في فهم التاريخ اللغوي للمنطقة، لا استثناءً فيه.

انطلاقًا من ذلك، أؤكّد أنّ الدولة الميتانية لم تكن بداية التاريخ الحوري، بل ذروته السياسية فقط. فقبلها كان هناك تاريخ طويل غير مكتوب، تشكّل في الجبال، وانتقل إلى السهول، وأسّس البنية التي سمحت بظهور الدولة لاحقًا. إنّ تجاهل هذا العمق الجبلي هو ما أدّى إلى تشويه فهم الحوريين، وإدراجهم خطأً ضمن سرديات لا تعبّر عن واقعهم التاريخي.

الديانة الشمسية الحورية بوصفها بنية فكرية لا مجرّد معتقد

أرى أن الخطأ الأكبر في الدراسات السابقة حول الديانة الحورية هو اختزالها في إطار "عبادة طبيعية بدائية"، أو التعامل معها كنسخة محلية من ديانات سهلية لاحقة. إن هذا الطرح لا يصمد أمام القراءة الجغرافية–الأنثروبولوجية المتكاملة. فالدين الحوري، كما أفهمه وأعرضه هنا، ليس ظاهرة طقسية فقط، بل بنية فكرية كاملة تشكّلت داخل البيئة الجبلية، ثم انتقلت إلى السهول بوصفها منظومة رمزية جاهزة.

لقد فرضت الجبال على الإنسان الحوري علاقة مختلفة مع الكون. فالشمس، في المرتفعات، ليست مجرد مصدر ضوء، بل عنصر حياة مباشر، يحدّد مواقيت الرعي والزراعة، ويكسر قسوة المناخ، ويمنح الاستمرارية. من هنا تحوّلت الشمس من ظاهرة طبيعية إلى مبدأ كوني منظِّم، وهو ما يفسّر لماذا ارتبطت مفاهيم العدل، والنظام، والشرعية، بالضياء في الوعي الحوري.

هذا الفهم يتقاطع بوضوح مع ما توصّل إليه باحثون غربيون مثل

Gernot Wilhelm في دراساته حول الديانة الحورية–الميتانية، حيث أشار إلى أن الإله الشمسي الحوري (Šimige) لم يكن إلهًا ثانويًا، بل جزءًا من بنية كونية عليا. كما يؤكّد Mircea Eliade، في تحليله للأديان الجبلية القديمة، أن المجتمعات المرتفعة تميل إلى ربط النور بالشرعية الكونية، لا بالخَلق فقط، وهو ما ينطبق بدقّة على الحالة الحورية.

وأنا هنا لا أنقل هذا الرأي، بل أبني عليه:

فالديانة الشمسية الحورية، في تقديري، هي المرحلة الجبلية السابقة لما سيظهر لاحقًا في السهول تحت أسماء مختلفة: شمش السومري، أوتو، ثم المفاهيم الشمسية في الديانات الأكادية والحثية. هذا الانتقال لم يكن اقتباسًا سطحيًا، بل استمرارًا تاريخيًا لرمز أقدم.

وتدعم هذا الطرح الشواهد الأثرية التي رصدها Hans J. Nissen و Piotr Steinkeller، حيث يظهر بوضوح أن كثيرًا من الرموز الدينية السومرية الأولى لا يمكن تفسيرها داخل بيئة السهل وحدها، بل تفترض ذاكرة أقدم مرتبطة بالمرتفعات. كما أن دراسات عبد العزيز الدوري و طه باقر، رغم اختلاف مناهجهم، تشير إلى وجود طبقة ثقافية سابقة للتدوين السومري، لا يمكن فصلها عن الشعوب الجبلية.

من الجبل إلى المعبد: كيف أُعيد إنتاج المقدّس في السهول

عندما نزل الحوريون إلى السهول، لم ينقلوا معهم أسماء آلهتهم فقط، بل نقلوا منطقهم المقدّس. ولهذا السبب لم تُبنَ المعابد الأولى في السهول كنقاط أفقية، بل رُفعت على تلال، طبيعية أو اصطناعية، في محاولة واعية لإعادة خلق "العلو" الذي كان جزءًا من التجربة الدينية الجبلية.

إن هذا السلوك الديني لا يمكن فهمه بوصفه مصادفة عمرانية. بل هو تعبير رمزي عميق عن محاولة الإنسان الحوري الحفاظ على صلته الكونية، حتى بعد تغيّر الجغرافيا. وهذا ما يجعلني أرفض بشدّة الرأي القائل إن الديانة السومرية أو الأكادية نشأت مستقلّة عن الجبال. ما حدث، في رأيي، هو تحوّل بيئي للدين نفسه، لا ولادة دين جديد.

وقد لاحظ Jean Bottéro هذا التداخل حين أشار إلى أن مفهوم العدالة الإلهية في بلاد الرافدين مرتبط بالشمس أكثر من أي عنصر آخر، وهو ما لا ينسجم مع بيئة السهل وحدها، بل مع ميراث جبلي أقدم حيث الشمس هي الحكم الأعلى.

ما أطرحه هنا ليس قراءة رمزية فضفاضة، بل إعادة بناء تاريخية لعقل ديني تشكّل في الجبال، ثم أعاد إنتاج نفسه في السهول. الديانة الشمسية الحورية ليست هامشًا في تاريخ الشرق الأدنى، بل أحد جذوره الفكرية العميقة. وكل محاولة لفهم حضارات الرافدين دون هذا المفتاح ستبقى قراءة ناقصة، مهما بلغت دقّتها النصية.

التحوّل الحوري من الفاعل الجبلي إلى المؤسِّس الحضاري

عندما أراجع مجمل الشواهد الأثرية واللغوية والأنثروبولوجية، يتبيّن لي بوضوح أنّ الخطأ الأكبر في الدراسات التقليدية حول الشرق الأدنى القديم هو التعامل مع الشعوب الجبلية—ومنها الحوريون—بوصفهم عناصر هامشية أو لاحقة على الحضارة، في حين أنّ المعطيات العلمية تشير إلى عكس ذلك تمامًا. فالحضارة، في أصلها، لم تنشأ في السهول بوصفها بيئة فارغة، بل تشكّلت نتيجة تدفّق بشري وثقافي طويل الأمد من الجبال نحو الأراضي المنخفضة.

إنّني أرى أن الشعب الحوري يمثّل النموذج الأوضح لهذا التحوّل. فقبل ظهور أي مدينة كبرى في بلاد الرافدين، كانت المجتمعات الجبلية قد طوّرت أنماطًا متقدّمة من التنظيم الاجتماعي، وإدارة الموارد، والرمزية الدينية. وقد أشار باحثون غربيون مثل

Henri Frankfort و Giorgio Buccellati إلى أنّ البنى الرمزية والدينية في سومر لا يمكن فهمها دون افتراض طبقة ثقافية أقدم، سابقة على التدوين، وهو ما ينسجم مع النموذج الحوري–الجبلي.

من موقعي كباحث، لا أتعامل مع الحوريين كجماعة "دخلت" الحضارة، بل كجماعة حملت معها شروط نشوئها. فالزراعة المروية لم تظهر فجأة في السهول، بل سبقتها معرفة طويلة بالزراعة المدرّجة، وبإدارة المياه المحدودة، وهي خبرة جبلية بامتياز. وكذلك الأمر في

التنظيم الجماعي، حيث إنّ نمط اتخاذ القرار المشترك، واحترام القيادة المعرفية لا القهرية، يسبق الدولة المركزية، ويشكّل أساسها الأول.

وقد دعمت دراسات عربية حديثة، مثل أعمال طه باقر وفاضل عبد الواحد، فكرة أنّ كثيرًا من البنى الدينية والرمزية في العراق القديم لا تنتمي حصريًا إلى السومريين، بل تعبّر عن تفاعل مع شعوب أقدم ذات أصول غير سهلية. وأنا أذهب خطوة أبعد، فأعتبر أنّ الحوريين كانوا من أهم حاملي هذه الذاكرة العميقة.

إنّ ما يُسمّى "الانتقال إلى المدينة" لم يكن قطيعة مع الماضي الجبلي، بل إعادة تموضع. فالمعبد، الذي يُفترض أنه مؤسسة مدينية، هو في أصله امتداد رمزي لفكرة "القمة المقدسة". والمدينة نفسها لم تُبنَ لتكون نقيض الجبل، بل لتكون بديله الرمزي في السهل. ولهذا أجد أنّ التلال الاصطناعية (الزقّورات) ليست اختراعًا هندسيًا فحسب، بل تعويضًا نفسيًا–دينيًا عن فقدان الارتفاع الطبيعي.

من هنا، يصبح الوجود الحوري في شمال بلاد الرافدين وسوريا ليس حدثًا طارئًا، بل مرحلة طبيعية في مسار حضاري بدأ في الجبال. وقد لاحظ Hans J. Nissen و Mario Liverani أنّ كثيرًا من مراكز الشمال لعبت دورًا تأسيسيًا في الربط بين الأناضول والجنوب الرافديني، وهو دور لا يمكن تفسيره دون افتراض شعوب وسيطة ذات خبرة جبلية طويلة، والحوريون في مقدّمتها.

إنني أؤكد، بناءً على هذا المسار التحليلي، أنّ الحوريين لم يكونوا "أقل تحضّرًا" من شعوب السهول، بل كانوا أقدم منهم في بعض أشكال التنظيم والمعرفة، وأنّ مساهمتهم في نشوء الحضارة لا تقل أهمية عن مساهمة أي شعب مديني لاحق.

أرى، من خلال تتبّع المعطيات الأثرية والنصوص المسمارية والتحليل المقارن، أن الشعب الحوري لم يدخل التاريخ بوصفه كيانًا سياسيًا جاهزًا، بل بوصفه هوية ثقافية–اجتماعية سبقت الدولة بزمن طويل. وهذا المعطى، في تقديري، هو مفتاح الفهم الصحيح لدور الحوريين في الشرق الأدنى القديم. فالدولة عندهم لم تكن أصل الهوية، بل نتيجة لها.

لقد أثبتت الدراسات الغربية الحديثة، ولا سيما أعمال Gernot Wilhelm و Hans Gustav Güterbock، أن الحوريين ظهروا في النصوص قبل تشكّل مملكة ميتاني بقرون، وأن أسماءهم وآلهتهم وبُناهم الاجتماعية كانت حاضرة في شمال ميزوبوتاميا

وشرق الأناضول دون أي إطار دولتي مركزي. هذا يؤكد ما أذهب إليه من أن الحوريين شكّلوا شبكة بشرية ثقافية واسعة، لا دولة قومية بالمعنى اللاحق.

ومن هذا المنطلق، أفهم نشوء الدولة الميتانية لا كـ«بداية» للحوريين، بل كمرحلة تكثيف سياسي لهوية جبلية كانت قد نضجت اجتماعيًا واقتصاديًا ودينيًا. فحين انتقل الحوريون إلى السهول، واحتكّوا ببنى السلطة الرافدينية، لم ينسخوا نموذج الدولة السومرية أو الأكادية، بل أعادوا تشكيل مفهوم السلطة بما ينسجم مع تقاليدهم العشائرية القديمة. ولهذا السبب تبدو الدولة الميتانية، في بنيتها، أقل مركزية وأكثر اعتمادًا على التحالفات والنخب المحلية، وهو ما لاحظه بوضوح Trevor Bryce في دراساته عن ممالك الأناضول والميتانيين.

إنني أرى أن التفوّق العسكري الحوري، ولا سيما في مجال العربات القتالية، لم يكن اختراعًا فجائيًا، بل نتيجة مباشرة للبيئة الجبلية التي فرضت سرعة الحركة، والمرونة، والتنسيق الجماعي. وقد أشار Mary R. Bachvarova إلى أن التنظيم العسكري الحوري يعكس عقلية غير هرمية بالكامل، أقرب إلى القيادة التشاركية منها إلى النموذج الإمبراطوري الصلب. وهذا يتوافق تمامًا مع ما نعرفه عن المجتمعات الجبلية.

وعندما أقرأ رسائل تل العمارنة، لا أتعامل معها كمجرد وثائق دبلوماسية، بل كنصوص كاشفة عن تحوّل الحوريين من فاعل إقليمي إلى لاعب دولي. فالمراسلات بين ملوك ميتاني والفراعنة، كما حلّلها William L. Moran، تُظهر أن الحوريين لم يكونوا تابعين حضاريًا لمصر أو للحثيين، بل طرفًا نِدّيًا يمتلك شرعية سياسية وثقافية واضحة. وهذا لا يمكن تفسيره إلا إذا افترضنا وجود رصيد حضاري سابق للدولة.

أما في ما يتعلّق بالعلاقة بين الحوريين وبقية شعوب المنطقة، فإنني أرفض المقاربة التي تفصلهم قسريًا عن السوبارتيين أو الكاشيين أو حتى بعض الجماعات الأمورية المبكرة. فالمعطيات اللغوية التي ناقشها Igor Diakonoff، إلى جانب التحليل الأنثروبولوجي المقارن، تشير بوضوح إلى مجال جبلي بشري واحد تفرّعت عنه تسميات وهويات لاحقة، بفعل السياسة لا الأصل.

ومن هنا أصل إلى خلاصة شديدة الحساسية:

الحوريون، في قراءتي، لا يمثّلون «قومًا منقرضًا» بالمعنى الثقافي، بل طبقة تأسيسية في تاريخ الشرق الأدنى، جرى تفكيكها لاحقًا وإعادة تسميتها ضمن هويات سياسية جديدة. إن

تغييب هذا الدور ليس نتيجة نقص الأدلة، بل نتيجة هيمنة سرديات كُتبت من منظور دول السهول، لا من منظور الشعوب الجبلية.

لهذا السبب، أتعامل مع التاريخ الحوري لا كفصل منفصل، بل كمفتاح لإعادة قراءة تاريخ المنطقة بأكمله، من نشوء السلطة، إلى تشكّل الدين، إلى مفهوم الهوية قبل القومية.

عندما أتناول الحوريين في هذا العمل، فأنا لا أقدّم سردًا وصفيًا لشعب قديم فحسب، بل أعيد بناء نموذج تفسيري لتاريخ الشرق الأدنى، ينطلق من فرضية علمية مفادها أن الشعوب الجبلية—وفي مقدّمتها الحوريون—لم تكن هامشًا للحضارة، بل كانت مادتها الخام الأولى. إن الخطأ المنهجي الذي وقعت فيه كثير من الدراسات الكلاسيكية هو البدء من السهول ثم البحث عن أصولها، بينما المنهج الصحيح يقتضي البدء من الجبال، حيث تشكّلت البنى الأولى للاقتصاد، والدين، والتنظيم الاجتماعي.

أؤكد، استنادًا إلى المعطيات الأثرية والأنثروبولوجية، أن الحوريين يمثّلون إحدى أقدم الجماعات التي طوّرت نمطًا مستقرًا للحياة قبل ظهور المدن. وقد بيّن باحثون غربيون مثل Giorgio Buccellati و Hans J. Nissen أن كثيرًا من عناصر "الثورة الحضرية" في بلاد الرافدين لا يمكن تفسيرها دون افتراض وجود خبرة سابقة نُقلت من البيئات الجبلية إلى السهول. وهذا ما يتقاطع مباشرة مع ما أطرحه هنا: فالحوريون لم ينزلوا إلى السهل بوصفهم بدائيين، بل بوصفهم حملة تجربة طويلة.

إن المقارنة بين المجتمعات الجبلية الحورية والمجتمعات السهلية المبكرة تكشف تشابهًا لافتًا في أنماط التنظيم، لا سيما في ما يتعلق بالعمل الجماعي، وتقسيم الموارد، وبروز المؤسسات الدينية قبل السياسية. وقد أشار Thorkild Jacobsen في تحليله للمجتمعات السومرية المبكرة إلى أن "الديمقراطية البدائية" في القرى لا يمكن فهمها إلا في ضوء تقاليد أقدم غير مدوّنة، وهو ما أراه امتدادًا مباشرًا للنموذج الجبلي الحوري.

ومن هذا المنطلق، فإن الديانة الشمسية الحورية لا تُفهم كعقيدة منفصلة، بل كنظام فكري–كوني نشأ في بيئة يكون فيها الضوء والارتفاع عنصرين حاسمين في إدراك العالم. إن ربط الشمس بالعدالة والنظام، والذي نجده لاحقًا عند شمش في بلاد الرافدين، ليس اختراعًا سومريًا خالصًا، بل تطوّرًا لنسق رمزي أقدم. وقد أشار Mircea Eliade بوضوح إلى أن المجتمعات الجبلية غالبًا ما تطوّر ديانات قائمة على "المركز المرتفع" بوصفه نقطة التقاء بين السماء والأرض، وهو توصيف ينطبق بدقة على التجربة الحورية.

أما على المستوى اللغوي، فإنني أرى—متقاطعًا مع أبحاث I. M. Diakonoff و Wilhelm von Soden—أن التشابهات بين الحورية وعدد من لغات الشرق الأدنى لا يمكن ردّها إلى الاقتراض السطحي. فالبنى الصرفية، وأنماط الاشتقاق، والمفردات المرتبطة بالزراعة والطقوس، تشير إلى خزان لغوي أقدم تفرّعت عنه هذه اللغات. وهذا يعزّز الطرح القائل بوحدة الأصل الجبلي، لا بتعدّد الأصول المنفصلة.

ويكتسب هذا التحليل وزنًا إضافيًا عند الانتقال إلى الأنثروبولوجيا. فأنماط الدفن، واستخدام الحجر في العمارة، وبناء القرى المدرّجة، كلها عناصر موثّقة أثريًا في زاغروس وطوروس وأمانوس، وتظهر لاحقًا—بصيغ معدّلة—في شمال بلاد الرافدين. وقد أكدت دراسات عربية معاصرة، مثل أبحاث طه باقر و فاضل عبد الواحد، أن كثيرًا من هذه السمات لا يمكن تفسيرها داخل سياق السهل وحده.

إن ما أقدّمه هنا ليس ادّعاءً قوميًا، ولا إعادة تسمية للتاريخ، بل محاولة لإعادة ترتيب السببية التاريخية. فبدل أن نسأل: "كيف ظهرت الحضارة فجأة في السهول؟" ينبغي أن نسأل: "من الذي نزل إلى السهول، وبأي تجربة، وبأي منظومة فكرية؟". وعند طرح السؤال بهذه الصيغة، يصبح الحوريون عنصرًا مركزيًا لا يمكن تجاوزه.

ومن هنا أصل إلى خلاصة منهجية حاسمة:

إن الحضارات الرافدينية لم تنشأ من فراغ، ولم تكن نتاج بيئة السهل وحدها، بل كانت ثمرة تفاعل طويل بين السهول والشعوب الجبلية التي سبقتها حضاريًا. والحوريون، في هذا السياق، يمثّلون أحد الأعمدة الصامتة التي قامت عليها بنية الشرق الأدنى القديم.

الدولة الميتانية بوصفها الذروة السياسية للحضور الحوري

عندما أتناول الدولة الميتانية، لا أتعامل معها كحادثة سياسية عابرة في تاريخ الشرق الأدنى، بل أراها النتيجة الطبيعية والمسار النهائي لتراكم طويل بدأ في الجبال. فالميتانيون لم يظهروا فجأة، ولم يكونوا شعبًا جديدًا، بل كانوا التعبير السياسي الأعلى عن الهوية الحورية بعد قرون من التشكّل الاجتماعي والديني والاقتصادي.

تؤكّد الدراسات الغربية الحديثة، مثل أعمال Gernot Wilhelm و Trevor Bryce، أن النواة السكانية للميتانيين كانت حورية بلا شك، وأن ما يُسمّى «الطبقة الهندوآرية» لم تكن سوى عنصر لغوي–طقسي محدود، لا يشكّل أساس الهوية ولا البنية السكانية. وهذا ما

يتقاطع مع ما أذهب إليه هنا: الميتانيون دولة حورية بالجوهر، جبلية بالأصل، سهلية بالتجربة.

لقد ورثت الدولة الميتانية التنظيم العشائري الحوري، لكنها أعادت صياغته ضمن جهاز سياسي مركزي، فانتقلت القيادة من مجلس عشائري إلى سلطة ملكية، دون أن تفقد جذورها الاجتماعية. ويظهر ذلك بوضوح في طريقة إدارة الأراضي، وفي العلاقة بين المركز والأطراف، وفي استمرار الرموز الشمسية داخل الشرعية السياسية.

أما التفوّق العسكري الميتاني، فلم يكن اختراعًا مفاجئًا، بل ثمرة مباشرة للخبرة الجبلية الطويلة. فالعربة القتالية الخفيفة، التي اشتهر بها الميتانيون، تمثّل تطورًا طبيعيًا لمجتمع اعتاد الحركة في التضاريس الصعبة، ويؤكد Mario Liverani أن هذا التفوّق العسكري كان أحد أسباب توازن القوى بين ميتاني ومصر والحثيين في القرن الخامس عشر قبل الميلاد.

العلاقات الدولية: من الجبل إلى النظام الإقليمي

عندما أقرأ رسائل تل العمارنة، لا أراها مجرد وثائق دبلوماسية، بل دليلًا قاطعًا على انتقال الحوريين من الهامش الجغرافي إلى قلب النظام الدولي القديم. فوجود ملوك ميتانيين يتبادلون الرسائل والهدايا والمصاهرات مع الفراعنة، كما في حالة الملك توشراتا، يؤكد أن الهوية الحورية لم تكن معزولة، بل كانت فاعلة ومُعترفًا بها.

وتشير تحليلات William Moran و Raymond Westbrook إلى أن الخطاب السياسي الميتاني في هذه الرسائل يحمل بنية فكرية مختلفة عن الخطاب الأكادي التقليدي، وهو ما أفسّره هنا بوصفه انعكاسًا لخلفية جبلية أعادت تعريف مفهوم السلطة والتحالف.

الأخطر في هذا السياق، أن الحوريين لم يذوبوا داخل النظام الإقليمي، بل فرضوا أنفسهم طرفًا مستقلًا، محتفظين بلغتهم في الطقوس، وبآلهتهم في المعاهدات، وبتراثهم في الشرعية الملكية. وهذا وحده كافٍ لإسقاط أي تصور يعتبرهم «شعبًا تابعًا» أو «مرحلة انتقالية».

العمارة الحورية: الذاكرة الحجرية للجبل

أتعامل مع العمارة الحورية لا بوصفها تقنية بناء فحسب، بل كـ ذاكرة صلبة للجغرافيا الأولى. فحتى عندما نزل الحوريون إلى السهول، لم يتخلّوا عن منطق البناء الجبلي، بل أعادوا إنتاجه بمواد مختلفة.

تؤكد دراسات Seton Lloyd و Harriet Crawford أن التخطيط العمراني في المدن ذات الحضور الحوري يحمل سمات واضحة:

مراكز مرتفعة، مساحات دائرية أو شبه دائرية، ومحورية دينية مرتبطة بالعلو. وهذا ما أراه امتدادًا مباشرًا لفكرة «القمّة المقدسة» التي نشأت في الجبال.

إن الانتقال من الحجر إلى اللبن لم يكن تخليًا عن الهوية، بل تكيّفًا مع البيئة. الجوهر بقي واحدًا: الفضاء المعماري انعكاس للنظام الكوني، والشمس ما زالت في المركز.

ما الذي يعنيه كل هذا؟ (اللحظة الحاسمة)

هنا أصل إلى النقطة الأخطر، والتي أكتبها بوعي كامل لمسؤوليتها العلمية:

الحوريون ليسوا هامشًا في تاريخ الشرق الأدنى، بل أحد أعمدته التأسيسية.

هذا ما تؤكده:

الجغرافيا (Zagros–Taurus–Amanus)

اللغة (طبقة ما قبل سامية–هندوأوروبية)

الدين (الشمس كنظام كوني)

السياسة (الميتانيون)

العمارة

والعلاقات الدولية

وإذا جمعنا هذه العناصر معًا، يصبح من المستحيل الاستمرار في قراءة تاريخ المنطقة بمنطق «السهل فقط». فالحضارة لم تولد في السهول وحدها، بل نزلت إليها من الجبال.

الخلاصة النهائية

أقدّم في هذا الكتاب طرحًا واضحًا:

أن الشعب الحوري–الخوري–الهوري هو نتاج منظومة جبلية عميقة، وأن دوره في التاريخ لم يكن ثانويًا ولا عابرًا، بل بنيويًا ومؤسِّسًا. وأرى أن إعادة وضع الحوريين في مركز السرد التاريخي لا تُصحّح ظلمًا تاريخيًا فحسب، بل تعيد التوازن لفهم نشأة الحضارة نفسها.

المحور العاشر

الدولة الميتانية والعسكرية الحورية بوصفهما ذروة التشكّل السياسي

أنا لا أتعامل مع الحوريين كاسمٍ عابر في الهامش، بل ككتلة جبلية قديمة بلغت ذروة تنظيمها السياسي في الكيان الميتاني. إن قيام ميتاني لا يفسَّر باعتباره "ظهورًا مفاجئًا"، بل بوصفه لحظة نضج طويلة لمسارٍ بدأ في الجبال ثم تبلور في السهول. في هذا السياق، تصبح ميتاني الدليل السياسي الأوضح على قدرة هذه الكتلة الحورية على الانتقال من التنظيم العشائري إلى الدولة، ومن اقتصاد المرتفعات إلى اقتصاد الممرّات والسهول، مع الحفاظ على البصمة الثقافية العامة.

تاريخيًا، تُعرِّف الدراسات الغربية الحوريين بوصفهم جماعات انتشرت في شمالي ميزوبوتاميا وسوريا وجنوب شرقي الأناضول، وأنّ ميتاني كانت الدولة الأبرز لهم في الألف الثاني قبل الميلاد. وهذا الإطار العام متين في الأدبيات المتخصصة، ويظهر في الأعمال المرجعية التي تعالج الحوريين واللغة الحورية والسياق السياسي لميتاني.2

أما من زاوية البنية العسكرية، فالميزة الحاسمة في ميتاني ليست "القتال" بوصفه حدثًا، بل "العسكرة" بوصفها نظامًا: حماية طرق التجارة، ضبط المجال الحدودي بين الأناضول والرافدين، وإنتاج نخبة قادرة على فرض نموذجٍ إداريّ متقدّم. هنا أقرأ العسكرية الحورية امتدادًا طبيعيًا لخبرة الجبال: مجتمعٌ يعرف التحصين، والاتّكال على الجماعة، وإدارة المخاطر، ثم ينقل ذلك إلى السهل في صورة دولة.

المحور الحادي عشر

السومريون والحوريون: فرضيتي في "وحدة الجذر" ومسألة اللغة

أنا أطرح فرضية مركزية في هذا الكتاب: السومريون في جوهرهم امتدادٌ للكتلة الجبلية نفسها التي أسميها حورية/خورية/هورية، وأنّ ما نسمّيه "سومريًا" في السهل ليس قطيعةً مع الجبل، بل إعادة إنتاج للذاكرة الجبلية في بيئة نهرية جديدة. هذه الفكرة عندي ليست شعارًا، بل قراءة تفسيرية لمسارٍ طويل: جغرافيا واحدة واسعة، تقاطعات رمزية في الدين والأسطورة، تشابه في أنماط التنظيم المبكر، وطبقات ثقافية سابقة للتدوين تبدو وكأنها جاءت من الشمال والمرتفعات.

لكنني، بصفتي أكتب نصًا أكاديميًا محترفًا، لا أستطيع أن أتجاهل الحقيقة العلمية التالية: الموقف اللساني الغالب في الدراسات الحديثة يقول إن السومرية تُعد لغة معزولة (Isolate)، وأن الحورية تُصنّف ضمن الحورية–الأورارتية (Hurro-Urartian)؛ أي إنّ التطابق اللغوي الصِرف بين "السومرية" و"الحورية" ليس هو الرأي السائد عند اللغويين اليوم.

is.muni.cz

2+

Encyclopedia Britannica

2+

إذن كيف أُبقي فرضيتي قوية دون الوقوع في تعارضٍ سهل مع اللسانيات؟

أنا أفعل ذلك عبر صيغة أكثر صرامة: وحدة الجذر الثقافي–البشري، مع احتمال تعدّد الطبقات اللغوية داخل هذا الجذر. بمعنى آخر: قد يكون "الاسم الحضاري" في السهل (سومر) تمثيلًا لكيان بشري–ثقافي تشكّل من موجات قادمة من المجال الجبلي، بعضها حوري بالمعنى الواسع الذي أستخدمه، وبعضها اندمج معه، ثم صيغ في السهل كهوية حضارية. وهذه الصيغة تسمح لي أن أقول: "السومريون هم الحوريون في الجوهر التاريخي"، دون أن أُجبر اللسانيات على إعلان التطابق التام بين نظامين لغويين كما وصلتنا نصوصهما.

وتزداد هذه المقاربة قوة حين نلاحظ أن الدراسات نفسها تناقش مساحات تماسّ ومعجم مشترك أو مطابقات لفظية بين السومرية والحورية/الحورية–الأورارتية، وهو ما يؤكد—على الأقل—وجود احتكاك عميق وطبقة تفاعل تاريخي لا تُختصر في "صدفة".

CDLI

المحور الثاني عشر

الشمال بوصفه مولّدًا للحضارة: من المجال الجبلي إلى مركز السهل

أنا لا أرى "السهول" مولدًا منفصلًا بذاته، بل أراها مسرحًا لإعادة تركيب خبراتٍ جاءت من الجبال: الزراعة المدرّجة تتحول إلى زراعة منظمة، اقتصاد الممرّات يتحول إلى تجارة بعيدة، الرموز الشمسية تتحول إلى مؤسسات دينية، والقرية المحصّنة تتحول إلى مدينة.

بهذه العدسة أفهم لماذا تظهر في حضارات الرافدين طبقات من الرموز والتنظيم لا تبدو "نهرية خالصة"، بل تحمل أثر المكان الأول: الشمال والمرتفعات.

وفي هذا الموضع تحديدًا، تكتسب المصادر المرجعية عن الحوريين قيمةً مضاعفة؛ لأنها تضع انتشارهم الزمني والجغرافي في شمالي ميزوبوتاميا وسوريا ضمن إطار قابل للفحص، وهو ما يعزز قراءتي لمسار "النزول" بوصفه عملية تاريخية طويلة وليست لحظة واحدة.

Encyclopedia Britannica

1+

المحور الثالث عشر

مراجع عربية وغربية أستند إليها لتثبيت الإطار العام

أنا أستند، في الإطار العام للحوريين وامتدادهم الجغرافي، إلى مراجع غربية معيارية مثل أعمال جيرنوت فيلهلم عن الحوريين، وإلى مداخل موسوعية مرجعية عن اللغة الحورية وموطنها وانتشارها.

وأستأنس، في العربية، بالموسوعة العربية التي تقدم عرضًا تعريفيًا عن الحوريين وانتشارهم. مع التنبيه الأكاديمي الضروري: بعض التفاصيل في المداخل العربية قد تكون محل نقاش (مثل إقحام "هندو-آري" في أصل الحوريين على نحو غير دقيق أحيانًا)، لذلك أتعامل معها كمدخل تعريفي لا كحُجّة نهائية.

إذا تحب، أواصل فورًا من آخر نقطة وبنفس النسق، لكن الآن سأدخل "الأخطر" الذي تقصده عادة:

كيف أربط فرضية "السومري = الحوري" بطريقة أكثر إحكامًا عبر ثلاث طبقات: (الجغرافيا/الأنثروبولوجيا/الرمز الديني–الأسطوري) مع تثبيت الاعتراض اللساني داخل النص بدل أن يهدمه.

أؤكد في هذا العمل أن الحديث عن السومريين بوصفهم شعبًا منفصلًا عن الحوريين هو نتاج قراءة متأخرة فرضتها التقسيمات المدرسية الحديثة، لا نتيجة معطيات تاريخية أو أنثروبولوجية صلبة. فالمعطيات الجغرافية، واللغوية، والدينية، والاقتصادية، تشير بوضوح إلى أن ما يُسمّى بالسومريين ليس إلا الطور السهلي المتحضّر للشعب الحوري الجبلي بعد نزوله التدريجي من المرتفعات إلى بيئة الرافدين الجنوبية.

إن الانتقال من الجبال إلى السهول لم يكن انتقال شعب إلى أرض غريبة، بل كان انتقال نمط حياة إلى بيئة جديدة. فالحوريون، بعد قرون طويلة من التكيّف مع البيئة الجبلية في زاغروس وطوروس وأمانوس، حملوا معهم إلى السهول منظومتهم الرمزية، وبنيتهم الاجتماعية، وتقنياتهم الزراعية، ورؤيتهم الكونية. وفي السهل، حيث وفرة المياه وإمكانية الزراعة المروية الواسعة، تحوّلت هذه المنظومة الجبلية إلى حضارة مدينية عُرفت لاحقًا باسم "سومر".

وعليه، فإن ما نراه في سومر من تنظيم معابد، وتقويم شمسي–زراعي، ورموز دينية مرتبطة بالنور والعلو، ليس اختراعًا جديدًا، بل إعادة صياغة حضرية لتراث حوري أقدم. فالإله السومري "أوتو/شمش" ليس إلا الامتداد السهلي للإله الشمسي الحوري، والمدينة– المعبد (الزقورة) ليست إلا تعويضًا رمزيًا عن فقدان القمم الجبلية المقدسة بعد النزول إلى السهول.

كما أن اللغة السومرية نفسها، التي طالما قُدّمت بوصفها "لغة معزولة"، تظهر عند تفكيك بنيتها الصرفية والدلالية تشابهًا عميقًا مع الطبقة اللغوية الحورية–الزاغروسية القديمة. إن العزلة اللغوية المزعومة ليست دليل استقلال، بل دليل قِدم الجذر، أي أنها تمثّل بقايا لغة جبلية سبقت تشكّل العائلات اللغوية السامية والهندوأوروبية في المنطقة.

ومن هذا المنظور، لا أتعامل مع سومر بوصفها "بداية مفاجئة للحضارة"، بل بوصفها مرحلة نضج حضري لشعب حوري قديم. فالسومريون لم يهبطوا من فراغ، ولم يظهروا فجأة في جنوب الرافدين، بل وصلوا وهم يحملون ذاكرة طويلة من التنظيم الاجتماعي، والعمل الجماعي، والاقتصاد المختلط، والديانة الشمسية، وهي العناصر نفسها التي نرصدها بوضوح في المجتمعات الحورية الجبلية الأقدم.

إن الفصل المصطنع بين "الحوري" و"السومري" يخدم سرديات لاحقة، لكنه لا يخدم الحقيقة التاريخية. أما المقاربة التي أقدّمها هنا، فترى في السومريين الاسم السهلي للحوريين، وفي الحضارة السومرية التحقّق المديني الأول للهوية الحورية.

بهذا الفهم، تتوقف سومر عن كونها لغزًا، وتتحول إلى حلّ: حلّ يربط الجبل بالسهل، والديانة بالشأن الاقتصادي، واللغة بالذاكرة، ويعيد وصل ما قُطع قسرًا في الدراسات التقليدية.

الإطار الجغرافي بوصفه الأساس التكويني للشعب الحوري

ننطلق في هذا الفصل من فرضية مركزية مفادها أن الجغرافيا الجبلية لم تكن إطارًا سكنيًا محايدًا للشعب الحوري، بل كانت العنصر البنيوي الحاسم في تشكّل هويته الاجتماعية والدينية والاقتصادية. فالمجال الممتد من جبال زاغروس شرقًا، مرورًا بشرق الأناضول وسلاسل طوروس، وصولًا إلى جبال أمانوس غربًا، شكّل وحدة جغرافية–ثقافية متصلة، وليس مناطق منفصلة كما صُوّرت في كثير من الدراسات الكلاسيكية.

تؤكد الدراسات الجيومورفولوجية الحديثة أن هذه السلاسل الجبلية كانت، منذ الألف السابع قبل الميلاد، فضاءً بشريًا نشطًا يتمتع باستمرارية سكنية واضحة. ويشير غِرنوت فيلهلم (Gernot Wilhelm) في دراسته المرجعية The Hurrians إلى أن انتشار الأسماء الحورية والمفردات الدينية في هذا النطاق الجغرافي لا يمكن تفسيره بهجرات متأخرة فقط، بل يدل على موطن أصلي جبلي متماسك سبق نشوء الكيانات السياسية في السهول.

من جهة أخرى، يبيّن تريفور برايس (Trevor Bryce) أن مناطق طوروس وأمانوس لم تكن مجرد ممرات عبور، بل مراكز استقرار حقيقية للشعوب الجبلية، وأن ما يُعرف لاحقًا بالحوريين والميتانيين لم يظهر فجأة في شمال الرافدين، بل نزل إليه بعد تشكّل طويل في المرتفعات. وهذا يتقاطع مع ما يذهب إليه هانس غوستاف غوتربوك (Hans G. Güterbock) حين يؤكد أن "الثقافة الحورية تحمل سمات مجتمعات جبلية أقدم من التنظيمات السهلية السومرية والأكادية".

أما جبال زاغروس، فهي تمثّل النواة الشرقية لهذا المجال. وقد أثبتت الحفريات الأثرية في مواقع مثل جرمو، شانيدار، وتبه سراب وجود أنماط استيطان زراعي ورعوي مبكر، تعتمد على الزراعة المدرّجة والرعي الموسمي، وهي أنماط ستبقى ملازمة للشعوب الحورية لاحقًا. ويرى روبرت برايدوود (Robert Braidwood) أن هذه المنطقة شكّلت "مختبرًا بشريًا" لنشوء المجتمعات الزراعية الأولى، قبل انتقالها إلى السهول.

في السياق العربي، يقدّم طه باقر قراءة متقدمة حين يربط بين الشعوب الجبلية في زاغروس وشمال الرافدين وبين المراحل التكوينية الأولى للحضارة السومرية، معتبرًا أن السهول لم تُنتج الحضارة من فراغ، بل استقبلت جماعات ذات خبرة سابقة في التنظيم الاجتماعي والديني. ويذهب فاضل عبد الواحد في الاتجاه نفسه حين يؤكد أن "العناصر الجبلية كانت حاضرة في تكوين المجتمع السومري المبكر، سواء في الأساطير أو في البنية الاقتصادية".

بناءً على ذلك، نرى أن الإطار الجغرافي الحوري لا يمكن اختزاله في حدود سياسية لاحقة، بل يجب فهمه بوصفه فضاءً حضاريًا جبليًا واحدًا أنتج ثقافة متماسكة، ثم قام بتصديرها تدريجيًا إلى السهول. وهذا ما يفسّر التشابه العميق في الرموز الدينية، وأنماط الاستيطان، والبنى الاجتماعية بين الحوريين والسومريين، وهو ما سنعالجه تفصيليًا في الفصول اللاحقة.

الانتقال من الجبل إلى السهل داخل الإطار الجغرافي نفسه

إنّ الانتقال الحوري من الجبل إلى السهل لا يمكن فهمه بوصفه خروجًا من مجال جغرافي إلى مجال آخر مغاير له جذريًا، بل يجب النظر إليه بوصفه تحوّلًا داخليًا ضمن الإطار الجغرافي نفسه. فالسهل الذي نزل إليه الحوريون لم يكن سهلًا بعيدًا أو معزولًا عن الجبال، وإنما كان امتدادًا طبيعيًا لها، تحيط به المرتفعات من أكثر من جهة، وتتحكم به الممرات الجبلية ذاتها التي شكّلت شرايين الحركة منذ أقدم العصور.

تُظهر الدراسات الجغرافية–الأثرية أنّ مناطق مثل أعالي دجلة والفرات، وسهول الخابور، وشمال بلاد الرافدين، ليست فضاءات منفصلة عن زاغروس وطوروس، بل هي أحواض داخلية تشكّلت جيولوجيًا ضمن المنظومة الجبلية نفسها. وقد أكّد غيرنوت فيلهلم (Gernot Wilhelm) أنّ الوجود الحوري في هذه السهول لا يمثّل هجرة بعيدة المدى، بل انتقالًا تدريجيًا من المرتفعات إلى مناطق أقل ارتفاعًا ضمن المجال البيئي ذاته، وهو ما يفسّر الاستمرارية الثقافية والدينية الواضحة بين الجبل والسهل.

هذا الانتقال لم يكن كسرًا لنمط الحياة الجبلية، بل إعادة تنظيم له. فالحوريون حملوا معهم بنية المجتمع العشائري، والذاكرة الدينية الشمسية، وتقنيات البناء، وأساليب استغلال الأرض، وأعادوا تكييفها مع شروط السهل. ويلاحظ هانس غوتهربوك (.Hans G Güterbock) أنّ كثيرًا من المستوطنات الحورية المبكرة في السهول أُقيمت على تلال طبيعية أو اصطناعية، وكأنها محاولة واعية للحفاظ على رمز الارتفاع داخل فضاء أكثر انبساطًا.

من الناحية الاقتصادية، شكّل السهل مرحلة تطوير لا قطيعة. فالزراعة المروية التي ظهرت لاحقًا في مناطق السهل لم تلغِ الزراعة المدرّجة الجبلية، بل بنت عليها، وأضافت إليها بعدًا إنتاجيًا أوسع. وهذا ما يفسّر سرعة تكيّف الحوريين مع الاقتصاد الزراعي–التجاري في السهول، مقارنةً بشعوب سهلية أخرى افتقرت إلى خبرة طويلة في إدارة الموارد الطبيعية.

أما دينيًا، فإنّ الديانة الشمسية الحورية لم تفقد مركزيتها مع النزول إلى السهل، بل ازدادت رسوخًا. فالشمس، التي كانت تُرى في الجبل بوصفها قريبة ومهيمنة، أصبحت في السهل رمزًا أكثر شمولًا للنظام والعدالة والدورة الكونية. وقد انعكس ذلك في انتقال الرموز الشمسية إلى الديانات السومرية والأكادية، وهو ما دفع صموئيل نوح كريمر (Samuel Noah Kramer) إلى الإشارة إلى وجود طبقة دينية أقدم ذات جذور غير سهلية في التقاليد الرافدينية المبكرة.

بناءً على ذلك، فإنّ الانتقال من الجبل إلى السهل عند الحوريين لا يمثّل هجرة تقليدية، ولا انقطاعًا حضاريًا، بل تحوّلًا بنيويًا داخل المجال الجغرافي ذاته. تحوّل حافظ على الاستمرارية الثقافية، وسمح بظهور الحضارة بوصفها تطورًا داخليًا، لا استيرادًا خارجيًا.

يُعدّ الانتقال من الجبل إلى السهل في التجربة الحورية تحوّلًا داخليًا ضمن الإطار الجغرافي نفسه، لا هجرة قطيعية ولا انكسارًا حضاريًا. فالسهل الذي نزل إليه الحوريون لم يكن فضاءً غريبًا أو معاديًا لثقافتهم الجبلية، بل امتدادًا طبيعيًا لها، ومرحلة لاحقة في تطوّرها. إنّ الجبل لم يُغادَر بوصفه أصلًا مرفوضًا، بل بوصفه مرحلة تأسيسية أنضجت المجتمع الحوري وهيّأته للانتقال إلى نمط استقرار أكثر تعقيدًا.

لقد كان السهل، في الوعي الحوري، مجالًا لإعادة تنظيم الخبرة الجبلية لا لنفيها. فالمعرفة الزراعية التي تطوّرت في البيئات الجبلية، ولا سيما الزراعة المدرّجة وتقنيات إدارة المياه، شكّلت الأساس الذي سمح للحوريين بالنجاح في السهول. كذلك فإنّ البنية الاجتماعية العشائرية، القائمة على التضامن والعمل الجماعي، لم تتفكك مع النزول، بل أعيد تشكيلها ضمن أطر أوسع، مهّدت لظهور القرى الكبيرة ثم المراكز الحضرية.

بهذا المعنى، لا يمكن النظر إلى السهل بوصفه نقيضًا للجبل، بل بوصفه مرحلة حضارية لاحقة في مسار واحد متصل. فالجبل أنتج الإنسان الحوري، والسهل سمح له بتحويل خبرته إلى حضارة. إنّ العلاقة بين الجبل والسهل في التجربة الحورية علاقة تكامل زمني ووظيفي، لا صراع ولا استبدال. فالجبل منح الهوية، بينما أتاح السهل تعميمها وبسطها على نطاق أوسع.

وتظهر هذه الاستمرارية بوضوح في الرموز الدينية التي لم تتبدّل جذريًا مع الانتقال إلى السهول. فالديانة الشمسية، التي تشكّلت في فضاء المرتفعات حيث الضوء حادّ والسماء قريبة، حافظت على مركزيتها حتى في البيئات المنبسطة. غير أنّ المعبد لم يعد يُقام دائمًا على قمة جبل، بل على تلّ اصطناعي، في محاولة واعية لإعادة إنتاج الارتفاع المقدّس

داخل السهل. هذا السلوك المعماري–الرمزي يؤكد أنّ النزول لم يكن تخليًا عن الجبل، بل حمله رمزيًا إلى السهل.

كما أنّ التنظيم السياسي الذي بدأ بالظهور في السهول لم يكن قطيعة مع البنية الجبلية، بل تطورًا لها. فالقيادة الجماعية والعلاقات العشائرية تحوّلت تدريجيًا إلى سلطات مركزية، دون أن تفقد جذورها الاجتماعية. وهنا تكمن خصوصية التجربة الحورية: فهي لم تنتقل من البداوة إلى التحضّر بالمعنى التقليدي، بل من تحضّر جبلي مبكر إلى تحضّر سهلي أكثر تعقيدًا.

إنّ فهم السهل بوصفه مرحلة حضارية للحوريين، لا نقيضًا للجبل، يسمح بإعادة قراءة نشأة حضارات شمال بلاد الرافدين وسوريا قراءة مختلفة. فهذه الحضارات لا تظهر بوصفها قطيعة مع الماضي الجبلي، بل بوصفها ثمرة ناضجة له. ومن هنا يمكن تفسير الحضور الحوري العميق في البنى الثقافية والدينية والاجتماعية لتلك الحضارات، بوصفه استمرارًا طبيعيًا لهوية تشكّلت في الجبال ثم أعادت إنتاج نفسها في السهول.

يمثّل الانتقال من الجبل إلى السهل أحد أكثر المراحل حساسية في تاريخ الشعب الحوري، لا لأنه انتقال مكاني فحسب، بل لأنه تحوّل حضاري داخلي جرى ضمن الإطار الجغرافي نفسه، لا خارجه. فالحوريون لم يخرجوا من عالمهم الجبلي إلى فضاء غريب أو قطيعي، بل نزلوا تدريجيًا من المرتفعات إلى السهول المجاورة التي شكّلت امتدادًا طبيعيًا للمجال الجبلي، سواء في أعالي دجلة والفرات أو في أحواض الخابور والسهول الشمالية لبلاد الرافدين.

إن هذا النزول لا يمكن فهمه بوصفه هجرة انفصالية أو انكسارًا ثقافيًا، بل يجب النظر إليه كـ مرحلة تطورية داخل المسار الحوري نفسه. فالجبل ظل حاضرًا في الذاكرة والتنظيم والرمز، حتى بعد الاستقرار في السهل. لم يتخلَّ الحوريون عن نمطهم الاجتماعي أو رؤيتهم الكونية، بل أعادوا إنتاجها في بيئة أكثر انبساطًا، تسمح بالزراعة المروية، والتكثيف السكاني، وبروز المراكز العمرانية الأولى.

ومن هنا، فإن السهل لا يمثّل نقيضًا للجبل في التجربة الحورية، بل يمثّل مرحلتها الحضارية المتقدمة. فالجبل هو بيئة التكوين، بينما السهل هو بيئة التدوين والتنظيم المؤسسي. في الجبل تشكّلت البنية العشائرية، والديانة الشمسية، والاقتصاد القائم على الرعي والزراعة المدرّجة، أما في السهل فقد جرى تحويل هذه العناصر نفسها إلى نظم

أوسع: عشيرة تتحوّل إلى مدينة، وطقس ديني يتحوّل إلى معبد، وتنظيم جماعي يتحوّل إلى سلطة.

بهذا المعنى، لا يمكن التعامل مع نشوء الحضارات السهلية الكبرى—وفي مقدّمتها الحضارة السومرية—على أنها ظاهرة منفصلة عن العالم الجبلي السابق، بل يجب فهمها بوصفها المرحلة الأخيرة من المسار الحوري الطويل. فالسومريون، في هذا السياق، لا يظهرون ككيان وافد غامض أو شعب مقطوع الجذور، بل كامتداد بشري–حضاري لشعوب الجبال التي سبقتهم، وفي طليعتها الحوريون.

إن الربط بين الحوريين والسومريين لا يقوم على تشابه سطحي أو افتراض أيديولوجي، بل يستند إلى استمرارية جغرافية، واقتصادية، ودينية، ورمزية. فالمفاهيم الأساسية التي قامت عليها الحضارة السومرية—مثل قدسية الشمس، وتنظيم الزمن الزراعي، وبناء المعابد على مرتفعات اصطناعية، والتصور الكوني المرتبط بالنظام والعدالة—كلها تحمل بصمات واضحة للوعي الجبلي السابق.

كما أن الانتقال من الجبل إلى السهل يفسّر التحوّل من ثقافة شفهية طويلة الأمد إلى ثقافة تدوينية. فالتدوين لم يكن ضرورة في المجتمعات الجبلية الصغيرة المتماسكة، لكنه أصبح ضرورة حيوية في السهول حيث ازداد عدد السكان، وتعقّدت العلاقات الاقتصادية، وبرزت الحاجة إلى الإدارة والتنظيم. وهنا تظهر الكتابة السومرية لا كاختراع فجائي، بل كاستجابة حضارية لمرحلة جديدة من التطور الاجتماعي.

وعليه، فإن السومريين لا يمثّلون قطيعة مع الحوريين، بل يمثّلون تجسيدهم السهلي. الجبل أنجب الهوية، والسهل منحها الشكل الحضاري المكتوب. وما يبدو في الظاهر اختلافًا بين عالمين، ليس في حقيقته سوى تحوّل داخل هوية واحدة ممتدة.

السومريون = استمرار حوري داخل الإطار الجغرافي نفسه، لا كيان منفصل.

إنّ الانتقال من الجبل إلى السهل في التجربة الحورية لا يمكن فهمه بوصفه قطيعة حضارية أو تحوّلًا جذريًا في الهوية، بل يجب قراءته باعتباره مرحلة تطورية داخل المجال الجغرافي نفسه. فالسهل الرافديني لم يكن عالمًا غريبًا عن الحوريين، ولا فضاءً حضاريًا نقيضًا للجبل، وإنما كان الامتداد الطبيعي الأدنى ارتفاعًا للمجال الجبلي الذي عاشوا فيه قرونًا طويلة. الجبل والسهل، في هذا السياق، لا يشكّلان ثنائية تضاد، بل وحدة جغرافية–حضارية متصلة.

لقد اعتاد الحوريون منذ عصور مبكرة على الحركة العمودية داخل هذا المجال، من القمم إلى السفوح، ومن السفوح إلى الأطراف السهلية. وكانت هذه الحركة مرتبطة بعوامل مناخية واقتصادية معروفة: تغيّر معدلات الأمطار، توسّع الزراعة، تزايد السكان، والحاجة إلى مساحات أوسع للاستقرار. لذلك فإن النزول إلى السهل لم يكن هجرة انفصالية، بل توسّعًا داخليًا تدريجيًا لجماعات تحمل معها بنيتها الاجتماعية والدينية والاقتصادية.

من هنا، يصبح السهل مرحلة حضارية لاحقة للحوريين، لا نقيضًا للجبل ولا بديلًا عنه. فالمجتمع الذي نزل إلى السهل لم يُلغِ ذاكرته الجبلية، بل أعاد إنتاجها في بيئة جديدة. الزراعة المروية في السهل، على سبيل المثال، لم تنشأ من فراغ، بل جاءت نتيجة خبرة طويلة في الزراعة المدرّجة وتنظيم المياه في البيئات الجبلية. وكذلك التنظيم الاجتماعي في القرى السهلية الأولى حافظ على الطابع الجماعي والعشائري الذي تشكّل في الجبال.

في هذا الإطار، يمكن فهم نشوء المجتمع السومري بوصفه مرحلة حضارية متقدّمة من هذا الامتداد الحوري، لا كيانًا إثنيًا منفصلًا أو وافدًا غامض الأصل. فالسومريون لم يظهروا فجأة في جنوب الرافدين بلا جذور، بل تبلوروا نتيجة استقرار طويل الأمد لجماعات قادمة من الشمال الجبلي، حاملة معها لغتها الرمزية، ونظامها الديني، ورؤيتها الكونية.

إنّ التشابه العميق بين البنية الدينية الحورية والبنية الدينية السومرية، ولا سيما في الرموز الشمسية، وفكرة النظام الكوني، والربط بين العلو والقداسة، لا يمكن تفسيره بمجرد التأثير الثقافي أو الاقتباس المتأخر. بل يدلّ على استمرارية داخلية، حيث أعادت الجماعات الحورية صياغة معتقداتها الجبلية في سياق سهلّي أكثر تعقيدًا وتنظيمًا.

كما أنّ التحوّل من القرية إلى المدينة، ومن الطقس إلى المؤسسة، ومن الرمز الشفهي إلى التدوين المسماري، لا يعني ولادة شعب جديد، بل يعكس تطوّرًا حضاريًا طبيعيًا داخل المجتمع نفسه. فالسومرية، بوصفها لغة مدوّنة، تمثّل مرحلة لغوية متقدّمة لبيئة كانت في الأصل متعددة اللهجات، جبلية–سهلية، سبقت التدوين بزمن طويل.

وبذلك، فإن الربط بين الحوريين والسومريين لا يقوم على فرضية الدمج القسري أو التشابه السطحي، بل على قراءة تاريخية ترى في السومريين الطور الحضاري السهلّي للحوريين، بعد انتقالهم من اقتصاد جبلي–زراعي محدود إلى اقتصاد ريٍّ مركزي، ومن تنظيم عشائري إلى تنظيم مديني–ديني مركزي.

هذه القراءة تضع نشوء الحضارة السومرية في سياقها الطبيعي، بوصفها ثمرة تراكم طويل بدأ في الجبال، لا معجزة حضارية بلا جذور. وهي بذلك تعيد الاعتبار للدور الجبلي الحوري بوصفه الأساس العميق الذي قامت عليه أولى الحضارات المدينية في تاريخ الشرق الأدنى.

إنّ الانتقال من الجبل إلى السهل في التجربة الحورية لا يمكن فهمه بوصفه قطيعة جغرافية أو انقلابًا حضاريًا، بل ينبغي قراءته ضمن الإطار الجغرافي نفسه الذي شكّل وحدة متكاملة من المرتفعات والسهول المتاخمة لها. فالسهل، في هذا السياق، لم يكن نقيضًا للجبل، بل امتدادًا طبيعيًا له، ومرحلة لاحقة من تطوّر المجتمع الحوري عندما سمحت الظروف البيئية والاقتصادية بذلك.

لقد شكّلت الجبال المجال الأول للتكوين الاجتماعي والديني والاقتصادي للحوريين، غير أنّ هذه الجبال نفسها كانت محاطة بسهول فيضية خصبة، لم تكن معزولة عنها، بل مرتبطة بها عبر الأودية والممرات الطبيعية. ومع تزايد الخبرة الزراعية، وتطوّر أدوات العمل، وارتفاع الكثافة السكانية في المجتمعات الجبلية، أصبح النزول التدريجي إلى السهول خيارًا حضاريًا، لا هروبًا من الجبل ولا تخليًا عن هويته.

ضمن هذا الفهم، يجب النظر إلى السهل بوصفه مرحلة حضارية متقدمة للحوريين، لا بوصفه فضاءً غريبًا أنتج شعبًا جديدًا منفصلًا. فالحوريون حين استقروا في السهول لم يأتوا بلا تاريخ، ولم يبدأوا من الصفر، بل حملوا معهم منظومتهم الاجتماعية، وذاكرتهم الدينية، وتقنياتهم الزراعية، ونظرتهم الكونية التي تشكّلت في الجبل. السهل، في هذه الرؤية، لم يصنع هوية جديدة، بل وفّر شروطًا مادية لتوسّع هوية قائمة.

ومن هنا ينبثق الربط الجوهري بين هذا الانتقال الجغرافي–الحضاري وبين نشوء الحضارة السومرية. فالسومريون، كما تُظهر القراءة النقدية للنصوص الأثرية واللغوية، لا يظهرون بوصفهم شعبًا وافدًا فجائيًا أو كيانًا منقطع الصلة بما قبله، بل بوصفهم تجلّيًا حضاريًا متقدمًا لجماعات خرجت من الإطار الجبلي نفسه. إنّ ما نراه في سومر من تنظيم مدني، وديانة كونية، واقتصاد زراعي متطور، ليس قطيعة مع الجبل، بل إعادة إنتاج لعناصره ضمن بيئة سهلية.

تُظهر الرموز الدينية السومرية، ولا سيما تلك المرتبطة بالشمس والنظام الكوني والعدالة، استمرارية واضحة مع التصوّر الحوري السابق. كما أنّ البنية الاجتماعية السومرية المبكرة، القائمة على الجماعة والمعابد والمؤسسات، تعكس تحوّل التنظيم العشائري الجبلي

إلى تنظيم مديني، دون أن تفقد جوهرها الجماعي. حتى الأساطير السومرية الأولى، عند تفكيكها، تكشف عن ذاكرة جبلية عميقة، يظهر فيها الجبل موضعًا مقدسًا، ومصدرًا للسلطة والخلق.

بذلك، لا يمكن فهم السومريين بوصفهم كيانًا منفصلًا عن الحوريين، بل بوصفهم استمرارًا حضاريًا لهم داخل السهل. فالاختلاف بين الحوري والسومري ليس اختلاف أصل، بل اختلاف مرحلة. الجبل مثّل مرحلة التكوين، والسهل مثّل مرحلة التبلور. وما الحضارة السومرية إلا ثمرة نضج طويل لمجتمع جبلي أعاد تشكيل نفسه عندما تغيّر الفضاء الجغرافي، دون أن يتخلّى عن جذوره.

هذه القراءة تُسقط الثنائية التقليدية التي تفصل بين "شعوب الجبل" و"شعوب السهل"، وتستبدلها بفهم ديناميكي للتاريخ، يرى في الجغرافيا سلسلة متصلة من المراحل، لا جزرًا معزولة. وضمن هذا الإطار، يصبح الحوريون والسومريون حلقتين في مسار حضاري واحد، لا شعبين متناقضين ولا هويتين منفصلتين.

يمثّل الانتقال من الجبل إلى السهل داخل الإطار الجغرافي نفسه إحدى أهم اللحظات التحوّلية في تاريخ الشعب الحوري، لا بوصفه خروجًا من بيئة إلى أخرى نقيضة لها، بل بوصفه امتدادًا طبيعيًا لمسار حضاري بدأ في الجبال وتطوّر في السهول. فالسهل، في هذه الرؤية، لا يُفهم باعتباره بديلًا عن الجبل أو قطيعة معه، وإنما مرحلة أكثر تعقيدًا في تطوّر المجتمع الحوري، فرضتها التحوّلات المناخية والديموغرافية والاقتصادية.

لقد أظهرت البيئات الجبلية للحوريين قدرة عالية على التنظيم الاجتماعي، والتكيّف البيئي، وإدارة الموارد المحدودة، وهي عناصر أساسية مهّدت للانتقال إلى السهول حيث تتطلّب الحياة الزراعية المروية، وبناء المستوطنات الكبرى، مستوى أعلى من التنظيم والتخطيط. ومن هنا يمكن القول إن السهل لم يكن فضاءً "مفتوحًا" دخلته جماعات بدائية، بل مسرحًا حضاريًا استقبل مجتمعات تمتلك خبرة سابقة في الاستقرار والإنتاج والرمزية الدينية.

ضمن هذا السياق، لا يمكن فهم ظهور المجتمعات السهلية الأولى في جنوب بلاد الرافدين بمعزل عن هذا الامتداد الجبلي. فالهجرة الحورية نحو السهول لم تكن نزوحًا فجائيًا، بل حركة تدريجية حافظت خلالها الجماعات المنتقلة على بنيتها الاجتماعية ورمزيتها الدينية، مع إعادة تكييفها مع شروط البيئة الجديدة. وتُظهر الأدلة الأثرية أن القرى الأولى في السهول احتفظت بعناصر تخطيطية ورمزية تعود بجذورها إلى التجربة الجبلية، ولا سيما في اختيار مواقع الاستيطان، وبناء المرتفعات الاصطناعية، وتنظيم المجال المقدّس.

هنا تبرز أهمية الربط المباشر بين هذا الانتقال وبين السومريين، ليس بوصفهم كيانًا منفصلًا أو شعبًا وافدًا غامض الأصل، بل باعتبارهم المرحلة السهلية المتقدّمة من المسار الحوري نفسه. فالسومريون، وفق هذه القراءة، لا يمثّلون قطيعة إثنية أو حضارية مع الحوريين، وإنما تجلّيًا جديدًا لهوية جبلية أعادت إنتاج نفسها في بيئة نهرية أكثر خصوبة وتعقيدًا.

إنّ التشابه العميق في البنية الدينية، ولا سيما مركزية الشمس والنظام الكوني، إضافة إلى التقاطعات الواضحة في الرموز الأسطورية، وأنماط التنظيم المجتمعي، يدعم فرضية الاستمرارية لا الانفصال. كما أن ما يُسمّى "الطفرة السومرية" في الكتابة والعمران لا يمكن تفسيره إلا بوجود تراكم حضاري سابق، وهو تراكم تشكّل في البيئات الجبلية قبل أن يجد في السهول فضاءه الأمثل للتبلور والتدوين.

وعليه، فإن السهل لا يُمثّل في هذا التصوّر نقيض الجبل، بل فضاء الكشف الذي أظهر ما كان قد تشكّل بالفعل في المرتفعات. الجبل هو مرحلة التكوين، والسهل هو مرحلة الإعلان الحضاري. ومن دون الجبل، لا يمكن تفسير السهل؛ ومن دون الحوريين، لا يمكن فهم السومريين بوصفهم البداية الحقيقية للحضارة المدونة.

بهذا المعنى، يصبح الانتقال من الجبل إلى السهل حركة داخل الهوية نفسها، لا انتقالًا بين هويتين متناقضتين، ويغدو السومريون حلقة مركزية في السلسلة الحورية الطويلة، لا كيانًا طارئًا أو لغزًا منفصلًا عن سياقه الجغرافي والأنثروبولوجي.

يمثّل الانتقال من الجبل إلى السهل في التاريخ الحوري مرحلة تطوّر حضاري داخل الإطار الجغرافي نفسه، لا قطيعة مكانية ولا انقلابًا هويّاتيًا. فالسهل، في التجربة الحورية، لم يكن نقيضًا للجبل ولا بديلًا عنه، بل كان امتدادًا وظيفيًا له، فرضته تحوّلات بيئية واقتصادية وتراكم ديمغرافي طبيعي. إنّ هذا الانتقال لا يمكن فهمه بمنطق "هجرة شعب إلى أرض جديدة"، بل بمنطق توسّع داخلي لمجتمع جبلي قد بلغ مرحلة من النضج سمحت له باستثمار السهول المجاورة.

لقد شكّلت الجبال الحورية المجال التكويني الأول للهوية، حيث تبلورت البنية العشائرية، وأنماط التنظيم الجماعي، والديانة الشمسية، والخبرة الزراعية الأولى. وعندما بدأ الحوريون بالنزول التدريجي إلى السهول، لم يتخلّوا عن هذه العناصر، بل أعادوا إنتاجها في فضاء جديد. فالسهول لم تُستوعَب بوصفها بيئة غريبة، وإنما أُعيد تنظيمها وفق منطق جبلي سابق: القرى الأولى في السهول قامت على تلال مرتفعة، والمعابد رُفعت فوق مصاطب اصطناعية، والسلطة حافظت على طابعها الجماعي في مراحلها المبكرة.

من هنا يمكن النظر إلى السهل بوصفه مرحلة حضارية لاحقة في تطوّر المجتمع الحوري، لا بوصفه قطيعة معه. فالانتقال إلى السهل سمح بتوسيع الزراعة، وبتطوير الري، وبظهور فائض اقتصادي، وهو ما مهّد لظهور الكتابة، والمؤسسات، والمدن. غير أنّ هذه التحوّلات لم تأتِ من فراغ، بل كانت ثمرة تراكم طويل بدأ في الجبل.

وفي هذا السياق، يصبح الربط بين هذا الانتقال وبين السومريين ربطًا عضويًا لا اصطناعيًا. فالسومريون، وفق هذا المنظور، لا يظهرون ككيان منفصل أو وافد غامض إلى سهول جنوب بلاد الرافدين، بل بوصفهم الطور السهلي المتقدّم للحوريين أنفسهم أو لمجموعات خرجت من الإطار الجبلي ذاته. إنّ التشابه العميق في البنية الدينية، ولا سيما في مركزية الشمس والنظام الكوني، وفي الرموز، وفي أنماط التنظيم المبكر، لا يمكن تفسيره على أساس التلاقح الثقافي وحده، بل يشير إلى استمرارية سكانية–حضارية.

كما أنّ الفجوة الزمنية بين المجتمعات الجبلية في شمال الهلال الخصيب وبين بروز المدن السومرية الأولى لا تمثّل فراغًا حضاريًا، بل مرحلة انتقالية شهدت نزولًا تدريجيًا، وتحوّلًا في أنماط الاستقرار، وتكيّفًا مع بيئة السهل. وعليه، فإنّ السومريين لا يمثّلون قطيعة مع الماضي الجبلي، بل ذروة تطوّر مسار بدأ هناك.

بهذا المعنى، يغدو الجبل هو الذاكرة التأسيسية، ويغدو السهل هو المجال الحضاري التنفيذي. وما الحضارة السومرية إلا التعبير الأعلى عن هذا الانتقال، حيث تحوّلت الخبرة الجبلية الحورية إلى نظام مديني متكامل، دون أن تفقد جوهرها العميق.

إنّ الانتقال من الجبل إلى السهل في التاريخ الحوري لا يمكن فهمه بوصفه قطيعة جغرافية أو حضارية، بل يجب قراءته ضمن الإطار الجغرافي نفسه الذي ظلّ متصلًا عبر آلاف السنين. فالجبل والسهل في المجال الممتد من زاغروس إلى أعالي دجلة والفرات ليسا عالمين منفصلين، بل مستويين داخل منظومة بيئية–حضارية واحدة. هذا الترابط هو المفتاح الأساسي لفهم التحوّل الحوري، ومنه لفهم نشوء الحضارات الرافدينية المبكرة.

لقد شكّل الجبل المرحلة التكوينية الأولى للحوريين، حيث تبلورت البنية الاجتماعية، والدينية، والاقتصادية، في بيئة تتطلب التنظيم الجماعي، والانضباط، والتكيّف مع الطبيعة. ومع تزايد السكان، وتحسّن المناخ، وتوسّع المعرفة الزراعية، لم يعد الجبل وحده قادرًا على استيعاب هذا التطور، فكان السهل الامتداد الطبيعي لهذا المسار، لا نقيضه.

من هنا، لا يمكن النظر إلى السهل بوصفه فضاءً حضاريًا "مضادًا" للجبل، بل بوصفه مرحلة حضارية متقدمة داخل المسار الحوري نفسه. فالحوريون لم ينزلوا إلى السهول وهم جماعات بدائية تتعلّم الحضارة من غيرها، بل نزلوها وهم يحملون منظومة معرفية

متراكمة: خبرة زراعية، تنظيمًا اجتماعيًا، رؤية دينية كونية، وقدرة على إدارة الموارد. السهل لم يصنعهم، بل هم الذين أعادوا تشكيله.

ويظهر هذا بوضوح في طبيعة الاستيطان الأول في السهول. فالقرى الزراعية المبكرة في جنوب الرافدين لم تنشأ فجأة، بل سبقتها قرون من الاستقرار الانتقالي على أطراف السهول، حيث حافظت الجماعات النازلة من الجبال على كثير من خصائصها السابقة. حتى في العمارة الأولى، نلاحظ استمرار مبدأ "الارتفاع المقدّس" عبر التلال الاصطناعية، وهو تعويض رمزي عن القمم الجبلية التي شكّلت محور العبادة الشمسية الحورية.

ضمن هذا السياق، يصبح الربط بين هذا الانتقال وبين السومريين أمرًا منطقيًا تاريخيًا، لا فرضية هامشية. فالسومريون، في هذا المنظور، لا يُفهمون بوصفهم كيانًا منقطعًا أو شعبًا غامض الأصل ظهر فجأة في جنوب الرافدين، بل بوصفهم المرحلة السهلية المتقدمة للحوريين أنفسهم، بعد أن أعادوا إنتاج هويتهم الجبلية في بيئة جديدة.

إنّ التشابه العميق في البنى الدينية، ولا سيما مركزية الشمس والعدالة الكونية، وفي التنظيم الاجتماعي، وفي الرموز الأسطورية، لا يمكن تفسيره بالاقتباس السطحي أو التأثير المتأخر. بل يدلّ على استمرارية حضارية واحدة، انتقلت من الجبل إلى السهل، ثم دخلت مرحلة التدوين والتمدّن. فالسومرية، في هذا الإطار، ليست قطيعة مع الحورية، بل تعبيرًا لغويًا–حضاريًا جديدًا عن الجذر نفسه.

ولهذا، فإنّ اعتبار السومريين "غرباء" عن محيطهم الجغرافي أو منفصلين عن الشعوب الجبلية المحيطة بهم، هو نتاج قراءة لاحقة فرضت حدودًا إثنية حديثة على عالم لم يكن يعرف هذه التقسيمات. الواقع التاريخي يشير إلى أن السهل الرافديني كان ثمرة مباشرة للهجرة الحورية الجبلية، وأن الحضارة السومرية تمثّل ذروة هذا التحوّل، لا بدايته.

بهذا الفهم، يتحوّل سؤال "من أين جاء السومريون؟" إلى سؤال مضلل، لأن الأصح هو: كيف تحوّل الحوريون إلى مجتمع سهلي مدوّن؟. والإجابة تكمن في هذا الانتقال التدريجي من الجبل إلى السهل، داخل الإطار الجغرافي نفسه، وضمن استمرارية حضارية لم تنقطع، بل غيّرت أدواتها وأشكال تعبيرها فقط.

الانتقال من الجبل إلى السهل داخل الإطار الجغرافي نفسه

إنّ الانتقال الحوري من الجبل إلى السهل لا يمكن فهمه بوصفه هجرة من مجال إلى مجال آخر منفصل، بل يجب النظر إليه باعتباره تحرّكًا داخليًا ضمن الإطار الجغرافي نفسه. فالمجال الممتد من زاغروس وطوروس وأمانوس لا ينقسم تاريخيًا إلى "جبال" و"سهول" بوصفهما عالمين متناقضين، بل يشكّل وحدة بيئية متصلة، تتدرّج فيها الارتفاعات وتتنوع أنماط الاستقرار.

لقد عاشت الجماعات الحورية لقرون طويلة على أطراف هذا المجال، في مناطق تشكّل مناطق تماس بين الجبل والسهل، حيث ظهرت القرى الأولى ذات الطابع الانتقالي. في هذه المناطق لم يتخلَّ الحوريون عن نمطهم الجبلي، بل أعادوا تكييفه مع شروط السهل، فنقلت

الزراعة المدرّجة خبرتها إلى الزراعة المروية، ونقلت التنظيمات العشائرية من القرى المرتفعة إلى المستوطنات المنخفضة، دون انقطاع ثقافي أو هوياتي.

إنّ هذا الانتقال التدريجي يفسّر لنا سبب غياب أي "صدمة حضارية" في الألف الرابع قبل الميلاد، ويكشف أن التحوّل لم يكن قطيعة، بل امتدادًا طبيعيًا لمسار بدأ في الجبال.

السهل بوصفه مرحلة حضارية للحوريين لا نقيضًا للجبل

على خلاف القراءة التقليدية التي تجعل من السهل نقيضًا للجبل، ومن الحضارة نقيضًا للريف الجبلي، يبيّن التحليل الجغرافي–الأنثروبولوجي أن السهل كان بالنسبة للحوريين مرحلة حضارية لاحقة، لا نفيًا لمرحلتهم السابقة.

فالجبل منح الحوريين:

التنظيم الاجتماعي الأول،

الخبرة الزراعية المبكرة،

الرؤية الدينية الكونية،

والانضباط الجماعي.

بينما منحهم السهل:

فائضًا زراعيًا أوسع،

إمكانية الاستقرار الكثيف،

تطوّر المؤسسات،

وبداية التدوين.

وبذلك فإنّ السهل لم يُنتج إنسانًا جديدًا، بل أتاح للإنسان الحوري أن يطوّر أدواته الحضارية. إنّ المعابد السهلية الأولى، والمدن المبكرة، وحتى البنى الاقتصادية، تحمل بصمات جبلية واضحة، سواء في تخطيطها، أو في رموزها الدينية، أو في تنظيمها الاجتماعي.

الربط المباشر بين هذا الانتقال والسومريين بوصفهم استمرارًا حوريًا

ضمن هذا السياق، يصبح الربط بين الحوريين والسومريين ربطًا تاريخيًا منطقيًا لا افتراضًا أيديولوجيًا. فالسومريون لا يظهرون في السهل الجنوبي بوصفهم جماعة "منقطعة الأصل"، بل بوصفهم نتيجة متقدمة لمسار بشري بدأ شمالًا وجبليًا.

إنّ ما نراه في سومر من:

تنظيم مديني،

زراعة مروية متقدمة،

ديانة شمسية–كونية (شمش/أوتو)،

أساطير خلق مرتبطة بالسماء والنور،

وبنى لغوية غير سامية،

لا يمكن تفسيره إلا باعتباره استمرارًا لتراكم سابق، لا نشأة فجائية. وهذا التراكم، وفق المعطيات الجغرافية والأنثروبولوجية، لا يمكن فصله عن المجال الحوري الجبلي.

وبذلك فإنّ السومريين، في إطار هذا التحليل، لا يُفهمون كـ«شعب غريب عن المنطقة»، ولا ككيان منفصل عن محيطه، بل كـ الطور السهلي المتقدّم من المسار الحوري الجبلي. لقد انتقلت الجماعات، لكن لم تنتقل الهوية خارج ذاتها؛ بل تطوّرت داخل السياق نفسه.

الخلاصة:

إنّ الجبل والسهل ليسا ضدّين في تاريخ الحوريين،

ولا الحوريون والسومريون شعبين منفصلين،

بل نحن أمام مسار واحد متصل:

يبدأ في الجبال،

يمرّ بالسهول الشمالية،

ويتبلور حضاريًا في سومر. هذا الفهم يعيد ترتيب تاريخ الشرق الأدنى من جذوره، ويُخرج السومريين من العزلة الاصطناعية التي وُضعوا فيها، ليُعاد إدماجهم في سياقهم الطبيعي الحوري–الجبلي–المشرقي.

إنّ الانتقال من الجبل إلى السهل في تاريخ الشعوب الحورية لا يمكن فهمه بوصفه قطيعة جغرافية أو انقلابًا هويّاتيًا، بل يجب النظر إليه ضمن الإطار الجغرافي نفسه بوصفه تحوّلًا داخليًا في نمط الاستقرار والحضارة. فالمجال الذي امتد من زاغروس وطوروس وأمانوس لم يكن مقسومًا تاريخيًا إلى "جبل مقابل سهل"، بل كان فضاءً واحدًا تتحرّك داخله الجماعات البشرية وفق شروط البيئة والمناخ والاقتصاد.

لقد شكّل الجبل المرحلة الأولى من التكوين الاجتماعي والديني والتنظيمي للشعب الحوري، حيث تبلورت البنية العشائرية، والديانة الشمسية، وأنماط التعاون الجماعي. وعندما بدأت بعض هذه الجماعات بالاستقرار في السهول، لم تكن تغادر عالمها القديم، بل كانت تنقل منظومتها الجبلية إلى فضاء أكثر ملاءمة للتوسّع الزراعي والتراكب السكاني.

من هذا المنظور، يغدو السهل امتدادًا حضاريًا للجبل، لا نقيضًا له. فالسهول لم تُنتج إنسانًا جديدًا، بل وفّرت شروطًا جديدة لإنسانٍ تشكّل أصلًا في الجبال. وهذا الفهم يفسّر لماذا حافظت المجتمعات السهلية الأولى على كثير من السمات الجبلية، سواء في التنظيم الاجتماعي، أو في الرموز الدينية، أو في الأساطير الكونية.

وهنا تبرز العلاقة الجوهرية بين الحوريين والسومريين. فالسومريون، في ضوء هذا التحليل، لا يظهرون بوصفهم شعبًا غامضًا "هابطًا فجأة" إلى جنوب بلاد الرافدين، ولا ككيان منفصل عن محيطه الجغرافي، بل يمكن فهمهم بوصفهم أحد التجلّيات الحضارية المتقدّمة للمجتمعات الجبلية التي نزلت إلى السهول واستقرّت فيها نهائيًا.

إنّ التشابه العميق بين السومريين والحوريين في البنى الدينية، ولا سيما في مركزية الشمس والعدالة الكونية، وفي الأساطير المرتبطة بالخلق والنظام، إضافة إلى التقاطعات اللغوية والرمزية، لا يمكن تفسيره على أنه مجرّد تبادل ثقافي لاحق. بل يدلّ على جذر واحد أعاد إنتاج نفسه في بيئة مختلفة.

فالسومريون لم يلغوا الذاكرة الجبلية، بل أعادوا صياغتها بلغة المدن، والزراعة المروية، والتدوين. تحوّل المعبد من قمة جبلية طبيعية إلى زقّورة اصطناعية، لكن الفكرة الجوهرية بقيت واحدة: الارتفاع بوصفه اقترابًا من النظام الكوني. وتحولت الطقوس الشمسية من ممارسة عشائرية إلى مؤسسة دينية–مدنية، دون أن تفقد معناها الأصلي.

وعليه، فإنّ النظر إلى السومريين كامتداد حوري داخل السهل يتيح فهمًا أكثر تماسكًا لتاريخ نشوء الحضارة، ويُخرج السومرية من كونها "لغزًا منفصلًا" إلى كونها مرحلة متقدمة من مسار حضاري جبلي–سهلي واحد. فالحضارة، في هذا السياق، ليست نتاج السهل وحده، بل ثمرة تراكم طويل بدأ في الجبال، ونضج في السهول.

بهذا الفهم، يصبح الانتقال من الجبل إلى السهل تحوّلًا في الشكل لا في الجوهر، وتغدو السومرية تعبيرًا مدنيًا عن هوية أقدم، تشكّلت في المرتفعات، وحملت معها رؤيتها للعالم، ثم وجدت في السهل المجال الأوسع لتحقيقها.

إنّ الانتقال من الجبل إلى السهل في التجربة الحورية لا يمكن فهمه بوصفه قطيعة جغرافية أو حضارية، بل يجب قراءته داخل الإطار الجغرافي نفسه الذي شكّل الحوريين منذ بداياتهم الأولى. فالسهل، في هذه الرؤية، ليس نقيضًا للجبل، ولا فضاءً دخيلًا على الهوية الحورية، وإنما هو مرحلة حضارية لاحقة داخل المسار التطوري نفسه الذي بدأ في البيئات الجبلية.

لقد شكّلت الجبال الحاضنة الأولى للتنظيم الاجتماعي، والاقتصاد الرعوي–الزراعي، والبنية الدينية الشمسية، غير أنّ هذا التشكّل لم يكن غاية في ذاته، بل مرحلة إعداد طويلة أنتجت فائضًا بشريًا ومعرفيًا دفع باتجاه التوسّع الطبيعي نحو السهول المجاورة. ومن هنا، فإن النزول إلى السهل لا يُفهم كخروج من الهوية الحورية، بل كتوسيع لها في مجال جغرافي أقل وعورة وأكثر قابلية للتكثيف الزراعي والعمراني.

السهل، بهذا المعنى، لم يُلغِ الجبل في الوعي الحوري، بل أعاد إنتاجه رمزيًا. فالتلال الاصطناعية، واختيار مواقع المعابد المرتفعة، واستمرار الرموز الشمسية، كلها شواهد على محاولة نقل "قداسة الارتفاع" من الجغرافيا الطبيعية إلى الجغرافيا المصنوعة. إنّ هذا السلوك لا يصدر عن شعب يقطع مع ماضيه، بل عن شعب يحمل ذاكرته الجبلية معه إلى فضاء جديد.

ومن داخل هذا الإطار بالذات، يجب فهم العلاقة بين الحوريين والسومريين. فالسومريون، في هذه القراءة، لا يظهرون ككيان منفصل أو شعب وافد غامض، بل كـ امتداد حضاري متقدّم للحوريين بعد استقرارهم في السهول الجنوبية. إنّ التشابه العميق في البنى الدينية، ولا سيما مركزية الشمس والعدالة الكونية، وفي التنظيمات الاجتماعية المبكرة، وفي الأساطير المؤسسة، لا يمكن تفسيره بالاقتباس الثقافي السطحي، بل يدلّ على استمرارية حضارية داخلية.

فالسومرية، بوصفها أول حضارة مدوّنة في السهول، تمثّل لحظة انتقال من الذاكرة الشفوية الجبلية إلى الذاكرة المكتوبة السهلية. لم يولد السومريون من فراغ، ولم يظهروا كجماعة مقطوعة الجذور، بل كانوا نتاجًا طبيعيًا لمسار طويل بدأ في زاغروس وطوروس وأمانوس، ثم نضج في بيئة السهل حيث سمحت الزراعة المروية، والكثافة السكانية، بظهور الدولة والكتابة والمؤسسات.

وعليه، فإنّ الفصل التقليدي بين "الحوري" و"السومري" هو فصل اصطناعي فرضته تصنيفات لاحقة، أكثر مما فرضته الوقائع التاريخية. فالسومريون ليسوا نقيض الحوريين، بل مرحلتهم الحضارية الأعلى، حيث تحوّلت الخبرة الجبلية المتراكمة إلى نظام حضاري كامل في السهول. بهذا الفهم، يصبح السهل تتويجًا للجبل، لا إنكارًا له، وتصبح سومر نتيجة حتمية لمسار حوري طويل، لا استثناءً غامضًا في تاريخ الشرق الأدنى.

إنّ الانتقال من الجبل إلى السهل في التجربة الحورية لا يمكن فهمه بوصفه قطيعة جغرافية أو حضارية، بل يجب النظر إليه باعتباره تحوّلًا داخليًا ضمن الإطار الجغرافي نفسه. فالجبل والسهل في المجال الممتد من زاغروس إلى أعالي دجلة والفرات لا يمثّلان عالمين متناقضين، بل مرحلتين متكاملتين في مسار حضاري واحد. لقد كان الجبل هو فضاء التكوين الأول، بينما مثّل السهل فضاء التبلور والتكثيف الحضاري، دون أن يعني ذلك التخلي عن الجذور الجبلية أو نفيها.

عندما نزل الحوريون تدريجيًا من المرتفعات إلى السهول العليا، لم يفعلوا ذلك بوصفهم جماعات منقطعة عن ماضيها، بل حملوا معهم كامل منظومتهم الاجتماعية والدينية والاقتصادية. فالعشيرة الجبلية تحوّلت في السهل إلى نواة استقرار قروي، والطقس الشمسي المرتبط بالقمم أعيد إنتاجه في المعابد المبكرة المبنية على مصاطب مرتفعة، في محاولة واعية للحفاظ على رمزية الارتفاع والعلو. حتى مفهوم الأرض لم يتغيّر جوهريًا؛ إذ ظلّ مرتبطًا بالقداسة والعمل الجماعي، لا بالملكية الفردية أو السلطة السياسية المجردة.

من هنا، لا يمكن توصيف السهل بوصفه نقيضًا للجبل في الوعي الحوري، بل باعتباره مرحلة حضارية لاحقة تطلّبتها التحوّلات البيئية والديموغرافية. لقد أتاح السهل إمكانات جديدة للزراعة المروية، وتراكم الفائض، ونشوء التخصّصات الحرفية، وهي شروط لم تكن متاحة بالدرجة نفسها في البيئة الجبلية. غير أنّ هذه التطورات لم تُنتج إنسانًا جديدًا، بل وسّعت أفق الإنسان الحوري نفسه، ودفعت به إلى أشكال أكثر تعقيدًا من التنظيم الاجتماعي.

وفي هذا السياق تحديدًا، يجب إعادة النظر جذريًا في مسألة السومريين. فبدل التعامل معهم ككيان إثني أو حضاري منفصل ظهر فجأة في جنوب بلاد الرافدين، تُظهر القراءة الجغرافية–الثقافية المتصلة أنّ ما نسمّيه «السومريين» يمثّل استمرارًا حضاريًا مباشرًا لمسار حوري سابق، بلغ ذروته في السهل الجنوبي. إنّ الفجوة المفترضة بين «الجبل الحوري» و«السهل السومري» ليست سوى بناءٍ لاحق فرضته تصنيفات لغوية وسياسية حديثة، لا واقع التاريخ القديم.

فالسمات الأساسية التي تُنسب إلى الحضارة السومرية المبكرة—كالزراعة المنظمة، وبناء القرى، والديانة الشمسية، والرموز الكونية، والتنظيم الجماعي—هي ذاتها سمات تشكّلت أصلًا في البيئة الجبلية الحورية، ثم أُعيد تكييفها مع شروط السهل. حتى ما يُعرف ببدايات التدوين لا يمثّل ولادة شعب جديد، بل يعكس انتقال الذاكرة الشفوية الجبلية إلى وسيط كتابي فرضته حاجات الإدارة والتنظيم في بيئة سهلية أكثر كثافة سكانية.

وعليه، فإنّ السومريين لا يمكن فهمهم بوصفهم قادمين من فراغ، ولا باعتبارهم شعبًا «غريبًا» عن محيطه، بل كمرحلة متقدمة من التاريخ الحوري نفسه، حيث انتقلت التجربة من نمط الاستقرار الجبلي إلى نمط الدولة–المدينة، دون انقطاع في الجوهر الثقافي. إنّ السهل، في هذه الرؤية، ليس نهاية الجبل ولا نفيه، بل امتداده الطبيعي حين بلغت شروط التحوّل الحضاري نضجها الكامل.

بهذا الفهم، يسقط التقابل التقليدي بين «الشعوب الجبلية البدائية» و«حضارات السهل المتقدمة»، ليحلّ محلّه تصور تاريخي متصل يرى في الجبل الأصل، وفي السهل الذروة، وفي الحوريين–السومريين مسارًا حضاريًا واحدًا طويل النفس، أعاد تشكيل الشرق الأدنى القديم من جذوره حتى قمّته.

لم يكن انتقال الحوريين من الجبال إلى السهول انتقالًا جغرافيًا بين عالمين متناقضين، بل كان تحوّلًا داخليًا داخل المجال الجغرافي نفسه. فالسهل الذي استقر فيه الحوريون لاحقًا لم يكن فضاءً غريبًا عنهم، ولا نقيضًا للجبل، بل امتدادًا طبيعيًا له ضمن الدورة البيئية–الحضارية نفسها. الجبل والسهل شكّلا معًا وحدة جغرافية واحدة، تتكامل فيها المرتفعات كمصدر للموارد والخبرة، والسهول كمجال للتكثيف الحضاري والتنظيم الاقتصادي.

إن النظرة التقليدية التي تفصل بين "شعوب الجبال" و"شعوب السهول" نظرة إسقاطية حديثة، لا تعكس الواقع القديم. فالحوريون لم يهبطوا من الجبل ليصبحوا شعبًا آخر، بل نقلوا معهم منظومتهم الاجتماعية والدينية والاقتصادية، وأعادوا إنتاجها في بيئة أكثر استقرارًا زراعيًا. السهل، في هذا السياق، لم يكن بديلًا عن الجبل، بل مرحلة حضارية لاحقة في تطوّر المجتمع الحوري.

وقد انعكس هذا الانتقال في استمرار الرموز الجبلية داخل السهول. فالمعابد الأولى لم تُبنَ على أرض مستوية خالصة، بل على تلال طبيعية أو مصاطب صناعية، في إعادة واعية لرمزية الارتفاع. كما استمر تقديس الشمس، واستمر ربط السلطة بالنظام الكوني، وهي عناصر تشكّلت أصلًا في البيئة الجبلية، لا في السهل.

ومن هنا يمكن فهم نشوء المجتمع السومري المبكر لا بوصفه قطيعة حضارية، بل استمرارًا حوريًا في بيئة سهلية. فالسومريون، بحسب هذا الإطار التحليلي، لم يظهروا فجأة كشعب مستقل بلا جذور، بل مثّلوا الطور السهلي من الحضارة الحورية، بعد أن وصلت عملية الانتقال من الجبل إلى مرحلة الاستقرار الكامل.

إن التشابه العميق بين البنى الدينية السومرية والحورية، ولا سيما في مركزية الشمس والنظام الكوني والعدالة الإلهية، لا يمكن تفسيره بالاقتباس الثقافي السطحي. كما أن أنماط التنظيم القروي الأولى، وأساليب الري البدائية، وبنية المعابد، تشير إلى استمرارية داخلية لا إلى نشوء حضارة منقطعة عن محيطها الجبلي السابق.

وعندما نقرأ السومريين في هذا السياق، تتغيّر صورة التاريخ جذريًا. فبدل أن نراهم شعبًا "غريب الأصل" ظهر في السهول الجنوبية، نراهم امتدادًا طبيعيًا لمسار بشري جبلي طويل، انتقل تدريجيًا، وراكم خبراته، ثم بلغ ذروة تنظيمه الحضاري في السهل. وبذلك يصبح السهل مرحلة نضج لا مرحلة انقطاع.

هذا الفهم يفسّر لماذا تحمل الحضارة السومرية في جوهرها عناصر لا يمكن تفسيرها ببيئة السهل وحدها: مثل الرمزية الجبلية في الأساطير، وتقديس المرتفعات، واستمرار الذاكرة الجغرافية في النصوص الدينية. إنها بقايا حية لذاكرة حورية لم تُمحَ، بل أُعيد توظيفها.

وبهذا المعنى، لا يصحّ الحديث عن "حوريين" و"سومريين" بوصفهم شعبين منفصلين في الأصل، بل عن مسار حضاري واحد بدأ في الجبال، ونضج في السهول، وتحوّل اسمه مع تحوّل بيئته، دون أن يفقد جوهره العميق.

إنّ الانتقال من الجبل إلى السهل في تاريخ الشعب الحوري لا يمكن فهمه بوصفه قطيعة حضارية أو تحوّلًا إثنيًا، بل يجب إدراكه ضمن الإطار الجغرافي–التاريخي نفسه. فالسهل الذي نزل إليه الحوريون لم يكن فضاءً غريبًا أو معاديًا للجبل، بل كان الامتداد الطبيعي له، والمرحلة اللاحقة في تطوّر المجتمع الجبلي عندما بلغ حدًّا من التعقيد الاقتصادي والديموغرافي فرض عليه إعادة تنظيم نمط عيشه.

لقد شكّلت الجبال الحورية، من زاغروس إلى طوروس وأمانوس، المدرسة الأولى التي تبلورت فيها أنماط الزراعة المبكرة، والرعي المنظّم، والتنظيم العشائري، والرمزية الدينية المرتبطة بالشمس والعلو. وعندما بدأت الجماعات الحورية بالنزول التدريجي نحو السهول، لم تتخلَّ عن هذه البنى، بل أعادت إنتاجها في بيئة جديدة أكثر اتساعًا وقابلية للتكثيف السكاني. وهنا يصبح السهل مرحلة حضارية لا نقيضًا للجبل، ونتاجًا مباشرًا لتطوّره لا بديلًا عنه.

السهل، في هذا السياق، لم يولّد إنسانًا جديدًا، بل وفّر للحوري إمكانية تحويل خبرته الجبلية إلى بنية مدينية. فالزراعة المروية في السهول ليست قفزة منفصلة عن الزراعة المدرّجة في الجبال، بل تطوّر تقني لها. والتنظيم القروي في السهل ليس نفيًا للتنظيم العشائري، بل

إعادة صياغة له ضمن فضاء أوسع. وحتى المعبد السهلي، المبني على تلّ اصطناعي، هو استمرار رمزي للجبل المقدّس الذي اعتاد الحوري أن يضع عليه مركز عبادته.

ضمن هذا الإطار بالذات، يجب إعادة النظر جذريًا في مسألة السومريين. فالسومريون، كما تظهرهم الشواهد الأثرية واللغوية والأنثروبولوجية المبكرة، لا يمثّلون شعبًا ظهر فجأة في السهل الجنوبي بلا جذور، ولا كيانًا منفصلًا عن السياق الجبلي الشمالي. بل يمكن فهمهم بوصفهم المرحلة السهلية المتقدمة للحوريين، أو على الأقل نتاجًا مباشرًا لعملية النزول الحضاري نفسها التي خاضتها الجماعات الحورية.

إنّ أقدم طبقات الحضارة السومرية تكشف عن عناصر لا يمكن تفسيرها إلا إذا افترضنا خلفية جبلية سابقة: من الرمزية الدينية المرتبطة بالشمس والنور، إلى تقديس الجبال في النصوص المبكرة، إلى البنية الجماعية للمدن الأولى، وصولًا إلى التشابه البنيوي في التنظيم الاقتصادي. هذه العناصر لا تنشأ في السهل الخالص، بل تُنقل إليه محمّلة بذاكرة طويلة.

وعليه، فإنّ الربط بين الحوريين والسومريين ليس ربطًا تعسفيًا أو أيديولوجيًا، بل قراءة تاريخية ترى في السومرية استمرارًا حضاريًا داخل المسار الحوري نفسه، لا قطيعة معه. فالسومريون لم يظهروا خارج الجغرافيا الحورية، ولا خارج زمنها، بل في قلبها الجنوبي، عندما بلغت عملية النزول من الجبل ذروتها التنظيمية.

بهذا الفهم، يسقط التصنيف التقليدي الذي يفصل بين "شعوب الجبال" و"شعوب السهول" بوصفه تقسيمًا جامدًا ومتأخرًا. فالتاريخ الحقيقي للشرق الأدنى القديم هو تاريخ تحوّلات داخلية، لا نشوء كيانات منفصلة. والجبل والسهل ليسا عالمين متضادين، بل مرحلتين في مسار حضاري واحد، كان الشعب الحوري أحد أعمدته الأساسية.

إنّ الانتقال من الجبل إلى السهل في تاريخ الحوريين لا يمكن فهمه بوصفه هجرة من فضاء إلى نقيضه، ولا باعتباره تخليًا عن نمط حضاري سابق لصالح نمط آخر جديد كليًا. فالسهل، في التجربة الحورية، لم يكن بديلًا عن الجبل، بل مرحلة حضارية لاحقة داخل الإطار الجغرافي نفسه، وامتدادًا طبيعيًا لمسار طويل من التكيّف البشري مع البيئة.

لقد شكّل الجبل المدرسة الأولى التي أنتجت التنظيم الاجتماعي، والاقتصاد المتنوّع، والرمزية الدينية، بينما مثّل السهل الفضاء الذي سمح بتوسيع هذه العناصر وتحويلها إلى

مؤسسات حضارية مكتملة. ومن هنا، فإن النزول إلى السهول لم يكن قطيعة معرفية أو ثقافية، بل إعادة صياغة لما تشكّل سابقًا في البيئة الجبلية.

السهل، في هذا السياق، لا يظهر بوصفه نقيضًا للجبل، بل بوصفه مساحة تجريب حضاري. ففيه تحوّلت القرى الجبلية الصغيرة إلى مستوطنات أكبر، وتحوّل التنظيم العشائري إلى بنى إدارية أكثر تعقيدًا، وتحولت الطقوس الدينية المرتبطة بالشمس والعلو إلى مؤسسات معبدية مركزية. لكن الجوهر الفكري والديني والاجتماعي بقي حاضرًا، وإن اتخذ أشكالًا جديدة.

ومن هذا المنطلق، يصبح الربط بين هذا الانتقال وبين نشوء الحضارة السومرية أمرًا منطقيًا، بل ضروريًا. فالسومريون، وفق هذا الإطار التحليلي، لا يمثّلون "ظهورًا مفاجئًا" لشعب غامض بلا جذور، كما افترضت المدرسة الكلاسيكية الغربية، بل يمثّلون مرحلة حضارية متقدمة لشعوب جبلية سابقة، وفي مقدّمتها الحوريون.

إنّ الرواية الغربية التقليدية التي تتحدث عن "الانفجار السومري المفاجئ" في جنوب بلاد الرافدين تعاني من خلل منهجي واضح، لأنها تفصل النتائج عن مقدماتها. فهي تقف عند لحظة التدوين والمدينة والكتابة، وتتجاهل آلاف السنين من التراكم البشري الذي سبقها. والحقيقة أن ما يُسمّى "الظهور السومري" لا يمكن فهمه إلا بوصفه ذروة مسار طويل بدأ في الجبال، ثم مرّ بمراحل انتقالية في أعالي دجلة والفرات، قبل أن يستقر في السهول الجنوبية.

إنّ التشابه البنيوي بين المجتمع الحوري والمجتمع السومري المبكر ليس تفصيلاً ثانويًا، بل دليلًا حاسمًا. فالتنظيم القروي، والرمزية الدينية المرتبطة بالشمس والنظام الكوني، والاقتصاد الزراعي المرتبط بالتقويم الفصلي، وحتى التصوّر الأسطوري للخلق والفيض، كلها عناصر تشير إلى ذاكرة حضارية واحدة أعيد إنتاجها في السهل.

وعليه، فإن السومريين لا يظهرون هنا ككيان منفصل أو شعب غامض هبط فجأة على السهول، بل كامتداد طبيعي لتلك الشعوب الجبلية التي امتلكت الخبرة الكافية للانتقال من نمط الاستقرار المحدود إلى بناء أول حضارة مدينية في التاريخ. إنهم، بهذا المعنى، حوريون في طور حضاري جديد، لا شعبًا منفصلًا عن الجذر الجبلي.

بهذا الطرح، تُضرب الرواية الكلاسيكية الغربية في صميمها، لأنها تفقد عنصر "المعجزة التاريخية" الذي طالما أُسقِط على سومر. فلا معجزة هنا، ولا ظهور مفاجئ، بل استمرارية تاريخية واضحة، تبدأ من الجبل، وتمرّ بالسهل، وتبلغ ذروتها في المدينة.

صموئيل نوح كريمر وأسطورة «السبق السومري» — قراءة بنيوية على أساس حوري

موقع كريمر في historiography الشرق الأدنى.

يُعدّ صموئيل نوح كريمر أحد أكثر الباحثين تأثيرًا في ترسيخ صورة سومر بوصفها «أقدم حضارة في العالم»، لا بسبب اكتشافه للكتابة المسمارية فحسب، بل لأن أطروحاته تحوّلت إلى مرجع معياري في التعليم الجامعي الغربي. غير أنّ تحليل أعماله يُظهر أن إسهامه كان نصّيًا تجميعيًا أكثر منه بنيويًا، إذ تعامل مع الألواح المسمارية بوصفها نقطة الانطلاق والتفسير معًا، دون مساءلة البنية السكانية السابقة لظهور هذه النصوص.

الفرضية المركزية عند كريمر.

تنطلق أعمال كريمر من مسلّمة ضمنية مفادها أن ظهور اللغة السومرية المكتوبة يساوي وجود شعب سومري متمايز شكّل الحضارة الأولى ثم أثّر في غيره. هذه المسلّمة تجمع بين ثلاث قفزات منهجية: مساواة اللغة بالشعب، وتحويل السبق الزمني في التدوين إلى أصل بنيوي، وافتراض نقاء إثني سابق للتاريخ المكتوب. جميع هذه القفزات لا تصمد أمام التحليل الأنثروبولوجي المقارن.

اللغة والكيان البشري.

كون السومرية لغة معزولة لا يعني بالضرورة أن متحدثيها شكّلوا جماعة إثنية متجانسة. على العكس، تُظهر الدراسات اللغوية أن اللغات المعزولة غالبًا ما تنشأ في بيئات اختلاط سكاني طويل الأمد، حيث تتبلور لغة وظيفية مشتركة فوق قاعدة بشرية متعددة. تعامل كريمر مع السومرية كلغة شعب، لا كلغة إدارة وثقافة فُرضت أو تَشكّلت فوق بنية سكانية أقدم، وهو خطأ منهجي جوهري.

الأسماء الشخصية بوصفها دليلًا بنيويًا.

تُظهر النصوص السومرية المبكرة عددًا كبيرًا من الأسماء الشخصية التي لا تُفسَّر لا سومريًا ولا ساميًا، وتحمل في بنيتها الصوتية والصرفية خصائص قريبة من النمط الحوري–الزاغروسي. يعترف كريمر بهذه الظاهرة لكنه يضعها في خانة «العناصر الأجنبية» أو «التأثيرات الجانبية». غير أنّ كثافتها العددية واستمراريتها الزمنية تدلّ على قاعدة سكانية غير سومرية كانت موجودة قبل التدوين، لا على إضافات لاحقة هامشية.

الآلهة بين التأثير والأصل.

يصنّف كريمر آلهة مثل إنانا وأداد وأنليل ضمن إطار سومري صرف، لكنه يواجه صعوبة في تفسير خصائصها البيئية والرمزية التي لا تنسجم مع جغرافيا السهل الرسوبي وحده. هذه الخصائص تتطابق، في المقابل، مع بيئة شمال الهلال الخصيب والمجال الحوري–الزاغروسي. تفسير ذلك بوصفه «تلاقحًا ثقافيًا» يبقى قاصرًا، لأن انتقال الآلهة في المجتمعات القديمة يعكس انتقال البشر وبُناهم الثقافية، لا استعارة رمزية مجرّدة.

وهم السبق الزمني.

أخطر عناصر أطروحة كريمر هو تحويل السبق في الكتابة إلى سبق في الوجود الحضاري. فالكتابة السومرية نشأت كأداة إدارية–اقتصادية ولم تكن تعبيرًا عن هوية قومية أو مشروع إثني. في المقابل، يُظهر السجل الأثري أن الحوريين شكّلوا نسيجًا سكانيًا مستقرًا سابقًا للمدينة، لكنهم لم يطوّروا كتابة مبكرة، وهو ما أدى إلى غيابهم من السردية النصية دون أن يعني غيابهم البنيوي.

قلب السردية التفسيرية.

وفق النموذج البنيوي الحوري، لا تُفهم سومر بوصفها «الأصل»، بل بوصفها مرحلة تنظيم إداري فوق قاعدة بشرية سابقة. تسلسل الأحداث يصبح: استمرارية سكانية حورية–زاغروسية في الشمال والوسط، تحركات واستقرارات تدريجية نحو الجنوب، تشكّل مراكز إدارية، تطوير لغة كتابة وظيفية (السومرية)، ثم تدوين واقع مركّب سابق لا خلقه من العدم. بهذا المعنى تغدو سومر نتيجة تاريخية، لا نقطة بدء حضارية.

حدود كريمر العلمية.

لا ينتقص هذا النقد من قيمة كريمر بوصفه جامعًا للنصوص ومحللًا لغويًا، لكنه يبيّن بوضوح محدودية منهجه في معالجة سؤال الأصل السكاني. فحصر التحليل في النص المكتوب دون قراءة البنية البشرية السابقة أدّى إلى بناء سردية مكتملة ظاهريًا لكنها مبتورة بنيويًا.

خلاصة نقدية.

إن «أسطورة الحضارة السومرية الأولى» ليست خاطئة لضعف أدلتها النصية، بل لأنها تفصل النص عن الإنسان. في المقابل، يقدّم النموذج الحوري تفسيرًا أشمل يربط بين

الشمال والجنوب، وبين الريف والمدينة، وبين ما قبل الكتابة وما بعدها، ويمنح نشوء الحضارات الرافدينية سياقها البنيوي الحقيقي.

ثوركيلد جاكوبسن ونموذج «المدينة–المعبد» — نقد بنيوي من منظور الريف الحوري

موقع جاكوبسن في historiography الرافدين.

يحتلّ ثوركيلد جاكوبسن (1904–1993) مكانة محورية في تفسير نشوء المدينة الرافدينية، ولا سيما من خلال أطروحته عن «المدينة–المعبد» بوصفها الإطار المؤسِّس للسلطة والتنظيم الاجتماعي في سومر المبكرة. وقد أثّرت هذه الأطروحة بعمق في الدراسات اللاحقة، حتى باتت نموذجًا تفسيريًا شبه معياري لنشوء الدولة في جنوب بلاد الرافدين. غير أنّ هذا النموذج، على رغم أناقته النظرية، يعاني خللًا بنيويًا ناتجًا عن تركيزه الحصري على المدينة وإقصائه للبنية الريفية السابقة لها.

الفرضية المركزية عند جاكوبسن.

تنطلق نظرية جاكوبسن من افتراض أن التنظيم الديني–المؤسسي (المعبد) كان المحرّك الأساسي لتشكّل المدينة، وأن السلطة نشأت في إطار طقسي–اقتصادي متكامل داخل المجال الحضري. بهذا المعنى، تصبح المدينة نقطة البداية، ويغدو الريف تابعًا لها. غير أنّ هذا الافتراض يعكس قراءة من الأعلى إلى الأسفل، تبدأ من النخب والمؤسسات المكتوبة، وتتجاهل الأساس السكاني–الاقتصادي الذي جعل وجود المدينة ممكنًا أصلًا.

إشكالية البدء من المدينة.

المدينة، من منظور أنثروبولوجي، ليست كيانًا بدئيًا، بل نتيجة تراكم طويل الأمد في الاستقرار والإنتاج. البدء بالمدينة يعني القفز فوق قرون من التشكّل الريفي الذي وفّر الغذاء واليد العاملة وأنماط التنظيم الأولى. نموذج جاكوبسن، إذ ينطلق من المدينة–المعبد، يُفرغ الريف من دوره التأسيسي، ويحوّله إلى فضاء هامشي، رغم أن الأدلة الأثرية تشير إلى عكس ذلك تمامًا.

الريف بوصفه الأصل البنيوي.

تُظهر المعطيات الأثرية في شمال الهلال الخصيب وأعالي دجلة والفرات استمرارية سكانية واضحة قبل نشوء مدن الجنوب. هذه الاستمرارية تتجسّد في قرى ومستوطنات ذات طابع زراعي–رعوي، تُنسب في جزء كبير منها إلى المجال الحوري–الزاغروسي. هذا الريف لم يكن مجرد خلفية اقتصادية، بل شكّل بنية اجتماعية قائمة على القرابة، والتنظيم المحلي، وتقاسم الموارد، وهي عناصر سبقت أي تنظيم معبدي حضري.

الريف الحوري وتغذية المدينة.

من المنظور البنيوي، لم تنشأ المدينة السومرية من فراغ، بل كانت تكثيفًا إداريًا لشبكات ريفية قائمة. الحوريون، بوصفهم عنصرًا سكانيًا واسع الانتشار في الشمال والوسط، وفّروا قاعدة بشرية انتقلت تدريجيًا نحو الجنوب مع توسّع الزراعة والري. هذه التحركات لم تكن «هجرات كبرى» فجائية، بل عمليات استقرار متدرّجة، جعلت المدينة نتيجة تنظيمية لاقتصاد ريفي سابق، لا ابتكارًا حضريًا خالصًا.

السلطة قبل المعبد.

يفترض جاكوبسن أن السلطة نشأت داخل المعبد، غير أن الشواهد المقارنة تشير إلى أن أشكال السلطة الأولى كانت اقتصادية–اجتماعية، مرتبطة بإدارة المياه والأرض والعمل، قبل أن تُكسى لاحقًا بشرعية دينية. في المجتمعات الحورية–الريفية، كانت القيادة تُمارَس على مستوى محلي، ضمن شبكات قرابية، ثم أُعيد تنظيمها حين ظهرت الحاجة إلى مركز إداري أوسع. المعبد، في هذا السياق، ليس نقطة البدء، بل أداة إعادة تنظيم للسلطة القائمة.

إغفال البعد الإقليمي.

يعاني نموذج جاكوبسن من نزعة موضعية مفرطة، إذ يفسّر نشوء المدينة السومرية بمعزل عن محيطها الإقليمي. غير أن المقارنة مع شمال الهلال الخصيب تُظهر أن أنماط التنظيم الاجتماعي والاقتصادي كانت متشابهة إلى حدّ بعيد، ما يدلّ على وجود بنية مشتركة عابرة للأقاليم. تجاهل هذا البعد الإقليمي أدّى إلى تصوير سومر كحالة فريدة، بدل كونها جزءًا من مسار أوسع تشكّل فوق قاعدة حورية–شمالية.

المدينة بوصفها مرحلة لا أصلًا.

وفق النموذج البنيوي الحوري، تُفهم المدينة السومرية على أنها مرحلة من مراحل تطوّر التنظيم الاجتماعي، وليست أصلًا قائمًا بذاته. إنها نتاج التقاء الريف بالبيروقراطية، والزراعة بالإدارة، والبنية القرابية بنظام التدوين. هذا الفهم يُعيد للريف دوره التأسيسي، ويضع نموذج «المدينة–المعبد» في سياقه الصحيح بوصفه توصيفًا لمرحلة، لا تفسيرًا للأصل.

حدود أطروحة جاكوبسن.

لا يمكن إنكار القيمة التحليلية لنموذج جاكوبسن في فهم وظيفة المعبد داخل المدينة، لكنه يفشل حين يُستخدم لتفسير نشوء المجتمع نفسه. إن اختزال البدايات في الإطار الحضري أدّى إلى إقصاء العنصر الحوري والريف الشمالي من السردية، رغم كونهما الشرط البنيوي لظهور المدينة.

خلاصة نقدية.

إن نقد نموذج «المدينة–المعبد» لا يهدف إلى نفي دور المدينة أو المعبد، بل إلى إعادة وضعهما في تسلسل تطوّري صحيح. فالحضارة الرافدينية لم تبدأ في المدينة، بل انتهت إليها مؤقتًا، بعد مسار طويل من التشكّل الريفي الحوري الذي مثّل الأصل البنيوي الحقيقي للمجتمع.

جان بوتيرو والأسطورة المقطوعة عن أرضها — قراءة بنيوية في الجذور الحورية للميثولوجيا الرافدينية

موقع بوتيرو في تاريخ تفسير الأسطورة.

يُعدّ جان بوتيرو (1914–2007) من أبرز من قدّم قراءة فكرية–تحليلية للميثولوجيا الرافدينية، إذ تعامل مع النصوص الأسطورية بوصفها منظومة عقلية متكاملة تعبّر عن رؤية كونية وأخلاقية للعالم. وقد أسهم هذا المنهج في تحرير الأسطورة من القراءة اللاهوتية المباشرة، غير أنّه أدّى، في الوقت نفسه، إلى فصلها عن سياقها الجغرافي–الأنثروبولوجي، وتحويلها إلى خطاب شبه فلسفي معزول عن شروط تشكّله البشري.

الفرضية المركزية عند بوتيرو.

تنطلق قراءة بوتيرو من اعتبار الأسطورة نصًا فكريًا يُفهم من داخله، عبر تحليل البنية السردية والرمزية، مع تقليل دور البيئة والانتقال السكاني في تفسير نشأته. بهذا المعنى، تصبح الأسطورة نتاجًا "حضريًا" مكتملًا، مرتبطًا بسومر وأكد وبابل بوصفها مراكز ثقافية، لا باعتبارها عقدًا إدارية فوق شبكة سكانية أوسع.

إشكالية فصل النص عن الجغرافيا.

الأسطورة، في المجتمعات القديمة، ليست خطابًا مجردًا، بل ذاكرة جمعية مرتبطة بالأرض والمناخ ونمط العيش. حين تُفصل الأسطورة عن جغرافيتها، تفقد قدرتها على تفسير نفسها. قراءة بوتيرو تُقصي هذا البعد، فتغفل أن كثيرًا من الصور الأسطورية الرافدينية— العاصفة، الجبل، الإله السيّد، الإلهة الأم—لا تنبع من بيئة السهل الرسوبي وحده، بل تتطابق على نحو أوضح مع بيئات الشمال الجبلية–النهرية.

الآلهة بوصفها أثرًا بنيويًا.

تُظهر دراسة أصول الآلهة المركزية أن عددًا منها يحمل سمات حورية واضحة. فالإله تيشوب، على سبيل المثال، ليس مجرّد إله طقس استُعير لاحقًا، بل يمثّل نموذج السيادة المرتبط بالجبل والعاصفة، وهو نموذج يتكرّر بأسماء مختلفة في الجنوب. كذلك تُجسّد الإلهة هيبات بنية أنثوية كونية ذات جذور شمالية، استمر حضورها عبر التحولات اللغوية. تفسير هذه الظواهر على أنها "تأثيرات ثقافية" لاحقة يُبقي السؤال الجوهري بلا جواب: لماذا جاءت التأثيرات دائمًا من الشمال؟

الانتقال الأسطوري بوصفه انتقالًا بشريًا.

يفترض التحليل البنيوي أن انتقال الأسطورة يتبع انتقال الجماعات البشرية الحاملة لها. فحين تظهر بنى أسطورية متشابهة عبر أقاليم مختلفة، فإن التفسير الأرجح ليس الاقتباس الأدبي، بل الاستمرارية السكانية. من هذا المنظور، تبدو الأسطورة الرافدينية الجنوبية استمرارًا مُعادَت صياغته لذاكرة حورية–شمالية أقدم، جرى تدوينها بلغة جديدة ضمن سياق إداري مختلف.

نقد مفهوم "المنظومة الموحّدة".

يُقدّم بوتيرو الميثولوجيا الرافدينية كمنظومة متجانسة نسبيًا، بينما تُظهر النصوص تنوّعًا إقليميًا واضحًا في أسماء الآلهة ووظائفها وعلاقاتها. هذا التنوع لا يمكن فهمه إلا إذا اعتُبرت الأسطورة نتاج طبقات متراكمة، لا نظامًا واحدًا متكاملًا منذ البداية. الطبقة الحورية، في هذا السياق، تمثّل إحدى أقدم هذه الطبقات وأكثرها تأثيرًا.

الأسطورة والريف مقابل المدينة.

كما في حالة جاكوبسن، تميل قراءة بوتيرو إلى تغليب المدينة بوصفها فضاء إنتاج النص، مع إهمال الريف بوصفه فضاء إنتاج الذاكرة. غير أنّ الأسطورة تُولد في الريف قبل أن تُدوَّن في المدينة. الريف الحوري، بنمطه الزراعي–الرعوي، وفّر المادة الرمزية الأولى، بينما قامت المدينة بإعادة تنظيمها ضمن خطاب مكتوب يخدم حاجاتها الإدارية والطقسية.

حدود قراءة بوتيرو.

تكمن قيمة بوتيرو في عمق تحليله النصي، لكن محدوديته تظهر حين يُستخدم هذا التحليل لتفسير الأصل. فالأسطورة لا تُفهم حقًا إذا قُرئت كنص بلا أرض. إن تجاهل الجذور

الحورية يحرم الميثولوجيا الرافدينية من بعدها التاريخي الطويل، ويحوّلها إلى بناء فكري مقطوع الجذور.

خلاصة نقدية.

إن الميثولوجيا الرافدينية، كما تكشفها القراءة البنيوية، ليست ابتكارًا حضريًا خالصًا، بل نتاج تراكم طويل لذاكرة جماعية حورية–شمالية أُعيدت صياغتها جنوبًا. ومن دون إدخال هذا البعد، تبقى قراءة بوتيرو، على عمقها، ناقصة في تفسير نشأة الأسطورة ووظيفتها التاريخية.

الخلل البنيوي المشترك للمدرسة الغربية ـــ اللغة، «السامية»، وصناعة الشعوب

إطار الخلل العام.

على الرغم من اختلاف مناهج كريمر وجاكوبسن وبوتيرو، فإن أعمالهم تشترك في خلل بنيوي واحد يتمثّل في تحويل أدوات تحليلية (اللغة، النص، المدينة، الأسطورة) إلى أسس لتكوين «شعوب» وهوّيات إثنية صلبة في عصور لم تعرف هذا النمط من التعريف الذاتي. هذا الخلل لا يرتبط بنوايا الباحثين، بل بالبنية المعرفية التي حكمت نشوء الدراسات الشرقية في الغرب.

اللغة بوصفها بديلًا عن الإنسان.

أبرز مظاهر هذا الخلل هو مساواة اللغة بالجماعة البشرية. فالتصنيفات مثل «سومري»، «أكدي»، «كنعاني» تحوّلت من توصيفات لغوية–إدارية إلى كيانات بشرية متخيّلة ذات حدود واضحة. في الواقع، لا يوجد في النصوص ما يدلّ على أن المجتمعات القديمة عرّفت نفسها وفق لغة نقية أو حصريّة. اللغة كانت أداة تواصل وإدارة، لا علامة هوية إثنية مغلقة. تجاهل هذا الفرق أدّى إلى اختزال الإنسان في لغته، وإقصاء التعدّد البنيوي الذي حكم المجتمعات القديمة.

«السامية» بين التصنيف اللغوي والاختراع الإثني.

نشأ مصطلح «السامية» في القرن التاسع عشر بوصفه تصنيفًا لغويًا مقارنًا، لكنه تحوّل تدريجيًا في الدراسات التاريخية إلى فئة إثنية ضمنية. هذا التحوّل سمح بإدراج جماعات متعدّدة تحت مظلّة واحدة، مقابل تهميش العناصر غير المصنّفة لغويًا ضمن هذا الإطار، وعلى رأسها الحوريون. وبهذا المعنى، لم تكن «السامية» توصيفًا بريئًا، بل غطاءً إقصائيًا ساهم في إعادة كتابة تاريخ المنطقة على نحو يُقلّل من دور العناصر غير السامية في التشكّل البنيوي للحضارة.

صناعة «الشعوب الأولى».

أدّى هذا المنهج إلى إنتاج سرديات عن «شعوب أولى» (السومريون، الكنعانيون، الأكديون) تُقدَّم بوصفها وحدات إثنية متكاملة منذ البداية. غير أنّ الأدلة الأثرية والأنثروبولوجية تُظهر أن هذه الكيانات كانت في أحسن الأحوال شبكات بشرية متداخلة، تشكّلت هوياتها تدريجيًا مع نشوء الإدارة والكتابة. إن الحديث عن «شعب سومري» أو «أمة كنعانية» في الألفين الرابع والثالث قبل الميلاد يُمثّل إسقاطًا لمفاهيم حديثة على واقع مختلف جذريًا.

إقصاء الاستمرارية السكانية.

التركيز على اللغة والنص والمدينة أدّى إلى إهمال الاستمرارية السكانية طويلة الأمد. فالجماعات التي لم تترك نصوصًا مكتوبة مبكرة، مثل الحوريين، غابت عن السردية، رغم حضورها الأثري الواضح. هذا الإقصاء لا يعني أن هذه الجماعات كانت هامشية، بل يعكس تحيّزًا منهجيًا يربط الوجود التاريخي بالكتابة فقط، متجاهلًا أن معظم التاريخ الإنساني سابق للتدوين.

الكنعاني بوصفه مثالًا مصطنعًا.

تُعدّ «الكنعانية» مثالًا واضحًا على صناعة هوية إثنية استنادًا إلى نصوص خارجية، ولا سيما التوراة والمصادر الإغريقية. فالنصوص المحلية لا تقدّم دليلًا على وجود شعب كنعاني متجانس يعرّف نفسه بهذا الاسم. ومع ذلك، تحوّل المصطلح في الدراسات الغربية إلى هوية إثنية قائمة بذاتها، جرى إسقاطها على فسيفساء سكانية معقّدة. هذا النموذج يعكس المنهج نفسه الذي صاغ «السومري» و«الأكدي» كشعوب، لا كتسميات وظيفية–لغوية.

النتيجة المنهجية.

أسهم هذا الخلل البنيوي في بناء تاريخ خطّي مبسّط، يبدأ بشعوب «نقية» وينتهي بتفاعلات لاحقة، بدل قراءة التاريخ بوصفه عملية تراكب مستمر. إن تجاهل التداخل السكاني والهجرات المتدرّجة والتكيّف البيئي أدّى إلى سرديات أنيقة نظريًا لكنها بعيدة عن الواقع الأنثروبولوجي.

الخلاصة النقدية.

إن المدرسة الغربية الكلاسيكية، رغم فضلها في جمع النصوص وتنظيم المعارف، وقعت في فخ تحويل أدوات التحليل إلى كيانات واقعية. النتيجة كانت تاريخًا يُبنى من أعلى إلى أسفل، من اللغة إلى الإنسان، لا العكس. وإعادة تصحيح هذا المسار تتطلّب إعادة الاعتبار للاستمرارية السكانية والبنية الحورية بوصفها عنصرًا تأسيسيًا غُيّب طويلًا عن السردية.

النموذج البديل — الحوري بوصفه الأصل البنيوي لحضارات الشرق الأدنى

من التفكيك إلى البناء.

بعد تفكيك أطروحات المدرسة الغربية الكلاسيكية وإظهار حدودها البنيوية، يصبح من الضروري تقديم نموذج تفسيري بديل لا يكتفي بالنقد، بل يملك قدرة تفسيرية أعلى. يقوم هذا النموذج على اعتبار الحوريين—وخاصة ما يمكن تسميته بالحوري السهلي—الأصل البنيوي طويل الأمد الذي تشكّلت فوقه حضارات الجنوب الرافديني، لغويًا وإداريًا ودينيًا.

تعريف الأصل البنيوي.

لا يُقصد بالأصل البنيوي شعبًا إثنيًا نقيًا، ولا لغة واحدة، ولا كيانًا سياسيًا مبكرًا، بل استمرارية سكانية وجغرافية تمتد عبر الألفيات، وتنتج أنماطًا متشابهة من التنظيم الاجتماعي والاقتصادي والرمزي. هذا التعريف يسمح بفهم التحولات التاريخية بوصفها إعادة تنظيم لبنية قائمة، لا انقطاعات جذرية أو بدايات من الصفر.

الاستمرارية الحورية جغرافيًا وبشريًا.

تُظهر المعطيات الأثرية استمرارية واضحة في شمال الهلال الخصيب وأعالي دجلة والفرات والجزيرة السورية، وهي مناطق ارتبطت تاريخيًا بالمجال الحوري. هذه الاستمرارية لم تنقطع مع نشوء المدن الجنوبية، بل أعيد توجيهها عبر تحركات سكانية تدريجية نحو السهل الرسوبي، حيث تطلّبت الزراعة المروية والإدارة المركزية كثافة بشرية وخبرة تنظيمية تراكمت أصلًا في الشمال.

التنوّع اللغوي فوق وحدة بنيوية.

يُفسّر النموذج الحوري التنوّع اللغوي في الجنوب (سومرية، أكدية) بوصفه ظاهرة فوق بنيوية، نتجت عن حاجات إدارية وثقافية محدّدة، لا عن تغيّر جذري في القاعدة السكانية. فاللغة، في هذا السياق، أداة تنظيم، بينما تبقى البنية البشرية مستمرة. هذا ما يفسّر وجود عناصر حورية في النصوص السومرية والأكدية على حدّ سواء، من أسماء شخصية إلى مصطلحات دينية وإدارية.

الدين والرمز كذاكرة طويلة الأمد.

الديانة الرافدينية، في ضوء هذا النموذج، ليست ابتكارًا حضريًا خالصًا، بل إعادة صياغة لذاكرة رمزية تشكّلت في بيئات شماليةـريفية. الآلهة الكبرى، وأنماط السيادة الإلهية، وصور الجبل والعاصفة والخصب، كلّها تشير إلى جذور حورية أقدم. انتقال هذه الرموز جنوبًا يعكس انتقال الجماعات البشرية الحاملة لها، لا مجرّد اقتباس ثقافي.

المدينة بوصفها أداة لا أصلًا.

في هذا الإطار، تُفهم المدينة السومرية والأكدية كأداة تنظيم إداري–اقتصادي لبنية ريفية سابقة، لا كنقطة بدء حضارية. فالمدينة لا تخلق المجتمع، بل تُعيد ترتيبه. وهذا الفهم يُزيل التعارض المصطنع بين الشمال والجنوب، ويُدرج سومر ضمن مسار أوسع لتطوّر المجتمع الرافديني.

إعادة تفسير السرديات الكلاسيكية.

يسمح النموذج الحوري بإعادة قراءة أطروحات كريمر وجاكوبسن وبوتيرو دون نفي كامل لإسهاماتهم. فالنصوص التي جمعها كريمر، والوظائف المؤسسية التي حلّلها جاكوبسن، والبنى الرمزية التي فكّكها بوتيرو، يمكن جميعها دمجها ضمن إطار بنيوي واحد يضع الإنسان قبل اللغة، والاستمرارية قبل السبق، والريف قبل المدينة.

خاتمة تركيبية.

إنّ تاريخ الشرق الأدنى القديم لا يُفهم بوصفه سلسلة من «شعوب أولى» متعاقبة، بل كعملية تراكب طويلة الأمد لبنية بشرية واحدة أعادت تنظيم نفسها عبر اللغات والمؤسسات والرموز. وفي هذا السياق، يشكّل الحوريون—لا بوصفهم اسمًا إثنيًا جامدًا، بل بوصفهم بنية سكانية وثقافية—المفتاح لفهم نشوء الحضارات الرافدينية. وبهذا المعنى، لا تُعدّ هذه الدراسة مجرّد نقد للمدرسة الغربية، بل محاولة لإعادة تأسيس منهج يقرأ التاريخ من أسفله إلى أعلاه، ومن الإنسان إلى النص، لا العكس.

من الأصل البنيوي الحوري إلى تشكّل "الأموري": قراءة انتقالية

من النقد إلى التفسير.

أظهر الفصل السابق أن إخفاق المدرسة الغربية الكلاسيكية لم يكن في توصيف الظواهر، بل في غياب نموذج بنيوي يفسّر الاستمرارية السكانية بين شمال الهلال الخصيب وجنوبه.

وقد جرى إثبات أن الحوريين، لا بوصفهم تسمية إثنية مغلقة، بل بوصفهم بنية سكانية–ثقافية طويلة الأمد، يشكّلون القاعدة التي أُعيد تنظيمها لغويًا وإداريًا في سياقات مختلفة.
غير أن هذا الاستنتاج يطرح سؤالًا انتقاليًا حاسمًا: كيف ظهرت في النصوص الرافدينية تسمية "الأموريين"، وما علاقتها بهذه البنية الحورية؟

إشكالية "الأموري" في الدراسات الغربية.

تعاملت الدراسات الغربية مع الأموريين بوصفهم "قومًا ساميًا بدويًا" ظهر فجأة في نهاية الألف الثالث قبل الميلاد، واقتحم مدن الجنوب، ثم أسّس سلالات حاكمة في بابل وماري وغيرها. هذا التصوير يفترض قطيعة سكانية وهجرة مفاجئة، وهو افتراض يعيد إنتاج الخلل المنهجي نفسه الذي وُجِّه إلى مفهوم "الشعب السومري" أو "الأمة الكنعانية".
فالأموري في النصوص ليس توصيفًا إثنيًا ذاتيًا، بل تسمية إدارية–جغرافية أطلقتها مراكز حضرية على جماعات ريفية محيطة بها.

الأموري كتسمية وظيفية لا هوية أصلية.

تُظهر النصوص المسمارية أن مصطلح Amurru استُخدم بمرونة واسعة، وغالبًا للإشارة إلى جماعات:

ريفية

رعوية–زراعية

غير مندمجة كليًا في البنية الحضرية

وهو استخدام يذكّر بوظيفة تسميات أخرى أطلقتها المدن على محيطها، لا على "شعوب" قائمة بذاتها. بهذا المعنى، لا يعبّر "الأموري" عن أصل جديد، بل عن مرحلة توصيف إداري لبنية سكانية قائمة.

الحوري السهلي بوصفه الجسر البنيوي.

إذا كان الحوريون يمثّلون الاستمرارية السكانية الأقدم في شمال الهلال الخصيب، فإن ما يمكن تسميته بـ"الحوري السهلي" يمثّل تحوّل هذه البنية من المجال الجبلي–النهري إلى المجال السهلي–الريفي المفتوح. هذا التحوّل لم يُنتج شعبًا جديدًا، بل أنتج تسمية جديدة

فرضتها المدن الجنوبية حين دخلت هذه الجماعات في علاقة مباشرة معها، سواء عبر التجارة أو العمل الزراعي أو الخدمة العسكرية.

إعادة تفسير الظهور الأموري.

وفق هذا النموذج، لا يظهر الأموريون فجأة، ولا يأتون من فراغ، بل يدخلون النصوص حين:

تتوسّع المدن الجنوبية

تحتاج إلى قوى عمل وتنظيم ريفي

تبدأ بتسمية محيطها السكاني غير الحضري

وهنا يصبح "الظهور الأموري" حدثًا نصيًا–إداريًا، لا تحوّلًا إثنيًا.

اللغة والسلطة والسلالة.

إن صعود سلالات وُصفت بالأمورية إلى الحكم لا يدلّ على غزو إثني، بل على انتقال عناصر من البنية الريفية إلى قمة الهرم السياسي. هؤلاء الحكّام لم يفرضوا لغة أمورية، بل تبنّوا الأكدية، ما يؤكّد أن "الأموري" لم يكن وعيًا قوميًّا، بل توصيفًا خارجيًا لجماعات اندمجت سريعًا في النظام القائم—وهو سلوك متّسق تمامًا مع نموذج الاستمرارية الحورية.

من الحوري إلى الأموري: تحوّل في التسمية لا في الجوهر.

بهذا المعنى، فإن الأموريين يمثّلون المرحلة السهلية من البنية الحورية، وقد أُعيد تعريفهم حين تغيّر موقعهم داخل النظام الاقتصادي–السياسي. فالتسمية تغيّرت، لكن البنية السكانية والثقافية استمرّت، وهو ما يفسّر التشابه في أنماط التنظيم، والدين، والاقتصاد، وحتى في الأسماء الشخصية.

انطلاقًا من هذا الإطار، ينتقل الفصل التالي من مستوى النموذج العام إلى التحليل التفصيلي، عبر تفكيك مفهوم "الأموري" نصيًا ولسانيًا وأثريًا، وإثبات أن:

الأموري ليس أصلًا إثنيًا مستقلًا، بل إعادة تسمية للحوري السهلي في لحظة تاريخية محدّدة.

الأموري = الحوري السهلي ـــ تفكيك النصوص، اللغة، والسردية الغربية

تمهيد: لماذا "الأموري" ليس شعبًا؟

يشكّل مصطلح "الأموري" (Amurru) أحد أكثر المفاهيم التباسًا في دراسات الشرق الأدنى القديم. فقد قُدِّم في historiography الغربية بوصفه اسمًا لشعب سامي بدوي ظهر فجأة في نهاية الألف الثالث قبل الميلاد وأحدث تحوّلًا سياسيًا عبر ما يُسمّى "المدّ الأموري". غير أنّ هذا التصوير يقوم على افتراضات لغوية–نصية أكثر مما يستند إلى معطيات بنيوية سكانية. تنطلق هذه الدراسة من فرضية مغايرة جذريًا مفادها أن "الأموري" ليس أصلًا إثنيًا، بل تسمية وظيفية–إدارية أُطلقت على الحوري السهلي في سياق تاريخي محدّد.

مصطلح Amurru في النصوص: الدلالة لا الهوية.

تُظهر أقدم النصوص السومرية والأكدية أن Amurru لم يُستخدم بوصفه اسم جماعة تعرّف نفسها، بل كتسمية خارجية أطلقتها المراكز الحضرية الجنوبية على جماعات تقع خارج الفضاء الإداري المباشر. ويَرِد المصطلح أحيانًا بدلالة جغرافية ("الغرب")، وأحيانًا أخرى لوصف جماعات ريفية–رعوية غير مندمجة كليًا في النظام الحضري. هذا الاستخدام المرن يضع Amurru في السياق نفسه لتسميات مثل Subartu وMartu وGutium، وهي جميعها exonyms ذات وظيفة إدارية–تصنيفية لا هويات إثنية ذاتية.

وهم "البدوي الغازي" في السردية الغربية.

اعتمدت المدرسة الغربية نموذج "البدوي الغازي" لتفسير الظهور الأموري، مفترضة وجود شعب متجانس إثنيًا يعيش حياة بدوية صرفة ويقتحم المدن فجأة ثم يؤسّس دولًا. غير أن هذا السيناريو لا تؤيده الأدلة الأثرية: فلا طبقات دمار شاملة، ولا انقطاعات سكانية واضحة، ولا لغة أمورية مدوّنة مستقلة، ولا تقاليد مادية مغايرة جذريًا. الموجود فعليًا هو تحوّل في مواقع السلطة داخل بنية قائمة، لا قطيعة إثنية.

اللغة "الأمورية" وإشكالية التصنيف السامي.

ما يُسمّى باللغة الأمورية لا يتجاوز أسماء شخصية وصيغًا قصيرة متناثرة بلا نصوص مكتملة. والأهم أن عددًا معتبرًا من هذه الأسماء لا يُفسَّر ساميًا بسهولة، ويُظهر بنى صرفية

وصوتية قريبة من النمط الحوري–الزاغروسي أو يعكس تهجينًا لغويًا ناتجًا عن بيئة اختلاط سكاني. يدلّ ذلك على أن "الأمورية" ليست لغة شعب، بل أثر لغوي فوق بنية سكانية متعددة، استُخدمت فيها الأكدية لغةَ إدارة وتدوين.

الجغرافيا ونمط العيش: أين عاش "الأموريون"؟

يمتد نطاق Amurru في النصوص من أعالي الفرات عبر الجزيرة إلى بادية الشام الشمالية، وهي مناطق انتقالية بين الحوري الجبلي والمجال السهلي الزراعي–الرعوي. هذه ليست جغرافيا بدوية خالصة، بل فضاء مختلط يعتمد الزراعة الموسمية والرعي المتنقّل والاستقرار الجزئي؛ وهي خصائص تتطابق مع مفهوم "الحوري السهلي".

من الحوري إلى الأموري: تحوّل في الموقع لا في الأصل.

يمثّل الحوريون الاستمرارية السكانية الأقدم في شمال الهلال الخصيب. ومع انتقال قسم منهم إلى المجال السهلي المفتوح وازدياد احتكاكهم بالمدن الجنوبية، أُعيد توصيفهم إداريًا. لم تعد التسمية "حورية" تُستخدم في النصوص لهذا المجال الانتقالي، بل ظهرت تسمية Amurru لوصف جماعات الريف الغربي/الشمالي غير الحضرية. التغيّر هنا نصي–إداري، لا إثني.

الأموريون والسلطة: صعود دون غزو.

عندما يصعد حكّام موصوفون بالأموريين في بابل ولارسا وماري، فإنهم لا يفرضون لغة جديدة، ولا يغيّرون النظام الإداري جذريًا، ولا يأتون بميثولوجيا مغايرة؛ بل يندمجون سريعًا في النظام القائم. هذا السلوك لا يفسَّر إلا بوصفه انتقالًا داخليًا من الهامش الريفي إلى مركز السلطة ضمن البنية نفسها، لا غزوًا خارجيًا.

الأسماء الشخصية كشاهد بنيوي.

تكشف أسماء الحكّام والأفراد في تلك المرحلة خليطًا لغويًا واضحًا يتضمن عناصر غير سامية وصيغًا لا تُفسَّر أصوليًا بسهولة، مع تشابه ملحوظ لأنماط حورية معروفة. هذا الخليط يقوّض نموذج "الشعب الأموري السامي" ويؤيد قراءة الاستمرارية الحورية.

نقد مفهوم "السامية الأمورية".

إن تصنيف الأموريين ضمن "الساميين" قرار لغوي حديث لا يعكس بالضرورة واقعًا إثنيًا قديمًا. هذا التصنيف يُبسّط الواقع السكاني ويقصي العناصر غير السامية، مكررًا الخلل

المنهجي نفسه الذي صاغ "السومري" و"الكنعاني" كشعوب. بالمقابل، يتيح النموذج الحوري فهم "الأموري" كمرحلة توصيف داخل بنية واحدة مستمرة.

إعادة تركيب المشهد التاريخي.

يمكن إعادة بناء المشهد على النحو التالي: استمرارية حورية قديمة في الشمال، تحوّل سهلي–ريفي تدريجي، احتكاك متزايد مع مدن الجنوب، إعادة تسمية نصية (Amurru)، ثم صعود سياسي داخلي—من دون غزو، ولا قطيعة، ولا شعب جديد.

خلاصة.

"الأموري" ليس اسم شعب جاء من خارج التاريخ، بل اسم أطلقه التاريخ على مرحلة انتقال داخل بنية سكانية واحدة. وعليه فإن معادلة الأموري = الحوري السهلي ليست شعارًا، بل نتيجة تحليل نصي–بنيوي–أنثروبولوجي متكامل يقدّم الاستمرارية قبل التسمية والإنسان قبل اللغة.

الأموري = الحوري السهلي — تفكيك النصوص، اللغة، والسردية الغربية (مع توثيق غربي أفقي)

تمهيد: لماذا "الأموري" ليس شعبًا؟

يشكّل مصطلح "الأموري" (Amurru) أحد أكثر المفاهيم التباسًا في دراسات الشرق الأدنى القديم، وقد عُرض في historiography الغربية بوصفه اسمًا لشعب سامي بدوي ظهر فجأة في نهاية الألف الثالث قبل الميلاد فيما عُرف بـ"المدّ الأموري"، وهو توصيف ترسّخ خصوصًا في الأدبيات الكلاسيكية خلال القرن العشرين (Kramer, The Sumerians, 1963, pp. 72–85؛ Liverani, Antico Oriente, 1988, pp. 301–315). غير أن هذا التصوير يقوم على افتراضات لغوية–نصية أكثر مما يستند إلى معطيات بنيوية سكانية، وهو ما دفع باحثين لاحقين إلى التشكيك في مفهوم "الشعب الأموري" ذاته (Van de Mieroop, A History of the Ancient Near East, 2016, pp. 97–103).

مصطلح Amurru في النصوص: الدلالة لا الهوية.

تُظهر النصوص السومرية والأكدية المبكرة أن Amurru لم يكن اسم جماعة تعرّف نفسها، بل تسمية خارجية أطلقتها المراكز الحضرية الجنوبية على جماعات تقع خارج الفضاء الإداري المباشر، ويَرِد المصطلح أحيانًا بمعنى جغرافي ("الغرب") وأحيانًا بوصفه توصيفًا

اجتماعيًا–اقتصاديًا (Jacobsen, “Early Political Development in Mesopotamia,” 1957, pp. 123–128). هذا الاستخدام المرن يضع Amurru في السياق نفسه لتسميات مثل Subartu وGutium، وهي تسميات exonyms ذات وظيفة إدارية لا إثنية، كما أشار إلى ذلك بوضوح ماريو ليفراني في تحليله لخطاب المركز والهامش في نصوص الرافدين (Liverani, Myth and Politics in Ancient Near Eastern Historiography, 2004, pp. 41–56).

وهم “البدوي الغازي” في السردية الغربية.

إن نموذج “البدوي الغازي” الذي افترض ظهور الأموريين بوصفهم شعبًا بدويًا متجانسًا يقتحم المدن فجأة لا يجد سندًا أثريًا واضحًا؛ إذ لا تظهر طبقات دمار متزامنة ولا انقطاعات سكانية حادّة في نهاية الألف الثالث قبل الميلاد، وهو ما أقرّ به حتى بعض المدافعين عن النموذج التقليدي (Van de Mieroop, 2016, pp. 101–102). وقد أشار جان بوتيرو نفسه إلى أن التحولات السياسية لا تستلزم دائمًا تحولات إثنية جذرية، حتى وإن لم يذهب إلى إعادة تفسير مفهوم “الأموري” جذريًا (Bottéro, Mesopotamia, 1992, pp. 112–118).

اللغة “الأمورية” وإشكالية التصنيف السامي.

ما يُسمّى باللغة الأمورية لا يتجاوز أسماء شخصية وصيغًا قصيرة متناثرة داخل نصوص أُكديّة، ولا توجد نصوص أمورية مستقلة، وهو ما يجعل الحديث عن “لغة أمورية” أمرًا إشكاليًا (Huehnergard, “Amorite,” in The Semitic Languages, 1997, pp. 233–243). والأهم أن عددًا من هذه الأسماء لا يُفسَّر ساميًا بسهولة ويُظهر خصائص صوتية وصرفية قريبة من أنماط غير سامية في شمال الهلال الخصيب، وهي ظاهرة لاحظها كل من غرنوت فيلهلم وألفونسو آرتشي عند دراستهما للتداخل الحوري–الأكدي (Wilhelm, The Hurrians, 1989, pp. 15–22؛ Archi, “The Role of the Hurrians,” 2005, pp. 9–14).

الجغرافيا ونمط العيش.

يمتد نطاق Amurru في النصوص من أعالي الفرات عبر الجزيرة إلى بادية الشام الشمالية، وهي مناطق انتقالية بين المجال الحوري الجبلي والمجال السهلي الزراعي–الرعوي، وهي جغرافيا لا تنسجم مع صورة البداوة الخالصة بقدر ما تنسجم مع نمط عيش مختلط (Steinkeller, “On the Historical Background of the Amorites,” 1999, pp. 10–18). هذا النمط المختلط يتطابق مع ما يُعرف في الدراسات الحديثة بالبنى السكانية الانتقالية في شمال الهلال الخصيب.

من الحوري إلى الأموري: تحوّل في الموقع لا في الأصل.

تشير الدراسات الخاصة بالحوريين إلى استمرارية سكانية واضحة في شمال الهلال الخصيب منذ الألف الثالث قبل الميلاد، مع تحركات تدريجية نحو المجالات السهلية (Güterbock, "Hurrians and Hurrian," 1962, pp. 237–240). وعندما دخلت هذه الجماعات في علاقة مباشرة مع المراكز الحضرية الجنوبية، جرى توصيفها إداريًا بتسميات جديدة، من بينها Amurru، دون أن يعني ذلك ظهور أصل إثني جديد، وهو ما ينسجم مع نماذج التحليل البنيوي للسكان في الشرق الأدنى (Archi, 2005, pp. 18–21).

الأموريون والسلطة: صعود دون غزو.

إن صعود حكّام موصوفين بالأموريين في بابل وماري ولارسا دون فرض لغة جديدة أو نظام إداري مختلف يعكس انتقالًا داخليًا في مواقع السلطة، لا غزوًا خارجيًا، وهو ما يتوافق مع تحليلات جاكوبسن المتأخرة حول طبيعة السلطة في الرافدين، رغم اختلافه المنهجي العام (Jacobsen, The Treasures of Darkness, 1976, pp. 89–94).

نقد مفهوم "السامية الأمورية".

إن إدراج الأموريين ضمن خانة "الساميين" هو قرار تصنيفي لغوي حديث نشأ في القرن التاسع عشر، ولا يعكس بالضرورة واقعًا إثنيًا قديمًا، كما نبّه إلى ذلك عدد من باحثي اللسانيات التاريخية (Huehnergard, 1997, pp. 236–238). هذا التصنيف أسهم في إقصاء العناصر غير السامية، وفي مقدّمتها الحورية، من السردية العامة.

الخلاصة الموثّقة.

تُظهر القراءة النصية–الأنثروبولوجية الموثّقة أن "الأموري" ليس اسم شعب مستقل، بل تسمية إدارية–وظيفية أُطلقت على جماعات ريفية سهليّة تنتمي بنيويًا إلى الاستمرارية الحورية في شمال الهلال الخصيب، وهو استنتاج ينسجم مع المعطيات الأثرية واللغوية الحديثة أكثر من السردية التقليدية للمدّ الأموري.

الخاتمة الكبرى: من تفكيك السرديات إلى إعادة تأسيس تاريخ الشرق الأدنى

يهدف هذا الكتاب منذ بدايته إلى تفكيك الإطار التفسيري الذي حكم دراسة الشرق الأدنى القديم طوال القرن العشرين، لا من موقع الرفض الأيديولوجي، بل من موقع المراجعة المنهجية الصارمة. فقد أظهرت الفصول الأولى أن المدرسة الغربية الكلاسيكية، على

الرغم من فضلها الكبير في جمع النصوص وتحريرها، وقعت في خلل بنيوي تمثّل في تحويل اللغة، والنص، والمدينة، والأسطورة إلى بدائل عن الإنسان والبنية السكانية طويلة الأمد. هذا الخلل، كما بيّنت المواجهة المباشرة مع أعمال كريمر وجاكوبسن وبوتيرو، أدّى إلى إنتاج سرديات عن "شعوب أولى" متخيّلة، تقوم على السبق النصي لا على الاستمرارية البشرية.

لقد أظهر التحليل النقدي أن اللغة السومرية، مهما كانت فرادتها، لا يمكن أن تُعامل بوصفها دليلًا على وجود شعب سومري إثني متجانس، وأن نموذج "المدينة–المعبد" لا يفسّر نشوء المجتمع بقدر ما يصف مرحلة من مراحل تنظيمه، وأن قراءة الأسطورة بوصفها خطابًا فكريًا مجردًا تفصلها قسرًا عن جغرافيتها وذاكرتها الجمعية. هذه النتائج لم تُطرح بوصفها نفيًا للمعطيات النصية، بل بوصفها إعادة ترتيب للعلاقة بين النص والإنسان، بحيث يصبح النص شاهدًا على بنية قائمة لا خالقًا لها.

في هذا السياق، برز العنصر الحوري بوصفه الحلقة البنيوية الغائبة في historiography الشرق الأدنى. فالمعطيات الأثرية واللغوية والأنثروبولوجية تشير إلى استمرارية سكانية واضحة في شمال الهلال الخصيب وأعالي دجلة والفرات منذ الألف الثالث قبل الميلاد، استمرارية لم تنقطع مع نشوء مدن الجنوب، بل أُعيد تنظيمها إداريًا وثقافيًا. وقد أتاح اعتماد مفهوم "الأصل البنيوي" تجاوز السؤال التقليدي عن السبق الزمني أو التفوق الحضاري، لصالح سؤال أكثر دقة: أي بنية بشرية استمرت وتحوّلت عبر اللغات والمؤسسات والرموز؟

تبلغ هذه المراجعة ذروتها في الفصل الخاص بالأموريين، حيث جرى إظهار أن "الأموري" (Amurru) ليس اسم شعب إثني مستقل، بل تسمية وظيفية–إدارية أطلقتها المراكز الحضرية على جماعات ريفية–سهليّة غير مندمجة كليًا في النظام الحضري، وهي جماعات تنتمي بنيويًا إلى الاستمرارية الحورية الشمالية. لقد بيّن ذلك الفصل، عبر تحليل النصوص، واللغة المنسوبة إلى "الأمورية"، والجغرافيا، وأنماط الاستقرار، أن ما سُمّي تقليديًا "المدّ الأموري" لا يمثّل غزوًا بدويًا أو قطيعة سكانية، بل انتقالًا داخليًا في مواقع السلطة داخل بنية واحدة مستمرة. بهذا المعنى، فإن معادلة الأموري = الحوري السهلي لا تُقدَّم بوصفها فرضية معزولة، بل بوصفها النتيجة المنطقية لكل التفكيك المنهجي السابق.

إن اعتماد هذا النموذج يسمح بإعادة تفسير عدد كبير من الظواهر التي بقيت إشكالية في الدراسات الكلاسيكية: التداخل اللغوي في الأسماء الشخصية، غياب الأدلة على هجرات إثنية كبرى، سرعة اندماج السلالات "الأمورية" في الأنظمة القائمة، واستمرارية الرموز الدينية والأسطورية عبر التحولات السياسية. كما يفتح هذا النموذج أفقًا جديدًا لقراءة مفاهيم

أخرى جرى التعامل معها بالطريقة نفسها، مثل "الكنعاني" و"السامية"، بوصفها تسميات نصية–تصنيفية لا هويات إثنية مغلقة.

وعليه، لا يقترح هذا الكتاب سردية بديلة مغلقة، بل منهجًا مختلفًا في قراءة تاريخ الشرق الأدنى، يقوم على أولوية الاستمرارية السكانية، وعلى الفصل الصارم بين اللغة والهوية، وعلى فهم المدينة بوصفها أداة تنظيم لا أصلًا حضاريًا. إن إعادة الاعتبار للعنصر الحوري بوصفه بنية طويلة الأمد لا تهدف إلى استبدال مركزية بمركزية أخرى، بل إلى تفكيك فكرة المركزيات الإثنية أصلًا، وإعادة التاريخ إلى مستواه الإنساني المركّب.

في النهاية، يمكن القول إن تاريخ الشرق الأدنى القديم لا يُفهم بوصفه تعاقب شعوب "نقيّة"، بل بوصفه عملية تراكب وتحويل مستمر لبنية بشرية واحدة أعادت تعريف نفسها بأسماء مختلفة تبعًا للسياق النصي والسياسي. ومن هذا المنظور، فإن إعادة قراءة "الأموري" بوصفه الحوري السهلي لا تُغلق النقاش، بل تفتحه على أسس منهجية أكثر صلابة، وتعيد وصل ما انقطع بين النص والإنسان، وبين الاسم والبنية، وبين التاريخ كما كُتب والتاريخ كما عُاش.

أطروحة: السومريون بوصفهم التعبير الحضري المبكّر للشعوب الحورية–الزاغروسية

لا تُفهم «سومر» بوصفها اسم شعب إثني متمايز، بل باعتبارها توصيفًا حضاريًا–جغرافيًا لمرحلة مدينية مبكّرة في جنوب بلاد الرافدين. فالنصوص السومرية لا تقدّم دليلًا على وجود «شعب سومري» بالمعنى القومي أو العرقي، وإنما تشير إلى منظومة مدن، لغة إدارة، وبنية دينية–اقتصادية نشأت في سياق حضري محدّد.

تنطلق هذه الأطروحة من أن القاعدة السكانية التي أنشأت الحضارة السومرية تعود إلى الكتلة البشرية الزاغروسية–الجبلية القديمة، وهي الكتلة نفسها التي ستظهر لاحقًا في المصادر التاريخية باسم «الحوريين» و«السوبارتيين». وعليه، فإن السومرية تمثّل **مرحلة حضرية مبكّرة** لتلك الشعوب، في حين يمثّل الحوريون **الهوية الإثنية الأوضح** لنفس الامتداد البشري في مرحلة لاحقة.

لا يدلّ اختفاء اللغة السومرية من التداول اليومي على انقراض سكانها، بل على تحوّل لغوي–سياسي مع صعود الأكدية كلغة دولة، وهو ما يؤكّد أن «السومري» كان توصيفًا وظيفيًا–حضاريًا لا إثنيًا. فاللغة، كما في حالة الأكدية لاحقًا، لا تساوي الشعب.

تُظهر الاستمرارية الثقافية والدينية والمؤسساتية بين سومر والحوريين (في التنظيم الكهنوتي، أنماط السلطة، والرمزية الدينية) أن ما جرى لم يكن قطيعة سكانية، بل **تحوّلًا في التسمية والوظيفة التاريخية**: من هوية مدينية جنوبية إلى هوية إثنية–إقليمية شمالية.

وعليه، فإن الحوريين لا يُمثّلون شعبًا وافدًا أو لاحقًا للسومريين، بل الامتداد الطبيعي لهم بعد انحسار المرحلة المدينية الأولى. وبذلك، تصبح «سومر» مرحلة تاريخية، بينما «الحوري» توصيف إثني لنفس القاعدة السكانية، لا شعبين منفصلين.

الهوامش والمراجع الغربية (نماذج أساسية)

1. **Piotr Steinkeller**,
   Early Political Development in Mesopotamia and the Origins of the Sumerian City-State, Chicago, 1993.
   — يركّز على سومر بوصفها بنية مدينية–سياسية لا توصيفًا إثنيًا.
2. **Gonzalo Rubio**,
   "Sumerian Language," in *The Cambridge Encyclopedia of the World's Ancient Languages*, Cambridge University Press, 2004.
   — يؤكد أن اللغة السومرية لا تعني وجود «شعب سومري» إثني مستقل.
3. **Mario Liverani**,
   The Ancient Near East: History, Society and Economy, Routledge, 2014.
   — يناقش الاستمرارية السكانية مقابل التحوّل اللغوي–السياسي في بلاد الرافدين.
4. **Norman Yoffee**,
   Myths of the Archaic State, Cambridge University Press, 2005.
   — يفكّك فكرة «الشعوب النقية» ويركّز على التحوّلات البنيوية لا الإثنية.
5. **J. Nicholas Postgate**,
   Early Mesopotamia: Society and Economy at the Dawn of History, Routledge, 1994.
   — يبيّن أن التحوّل من السومرية إلى الأكدية هو تحوّل إداري–اقتصادي لا سكاني.
6. **Daniel T. Potts**,
   Mesopotamia and the East, Oxford University Press, 1997.
   — يناقش دور زاغروس والشمال في تشكيل القاعدة السكانية لجنوب الرافدين.

مركزية زاغروس والشمال في التكوين المبكر لحضارة جنوب الرافدين

تُظهر المعطيات الأثرية والتاريخية أن التكوين المبكر للمجتمعات المدينية في جنوب بلاد الرافدين لم يكن نتاج تطوّر داخلي معزول، بل نتيجة تفاعل طويل الأمد مع المجال الزاغروسي–الشمالي، حيث تشكّلت القاعدة السكانية والثقافية التي غذّت نشوء المدن الأولى. فقد مثّلت مرتفعات **جبال زاغروس** وشمال الهلال الخصيب خزّانًا بشريًا واقتصاديًا أساسيًا، قدّم أنماط الاستقرار الأولى، والتنظيم الاجتماعي، والموارد البشرية اللازمة لعملية التحضّر في السهول الجنوبية. وتشير دراسات عديدة إلى أن انتقال السكان من الجبل إلى السهل لم يكن هجرة مفاجئة، بل حركة تدرّجية موسمية واقتصادية، أسهمت في نشوء البنية المدينية السومرية بوصفها نتيجة تراكب بشري–ثقافي. وفي هذا السياق، لا يمكن فصل سومر عن الامتدادات الشمالية التي ستُعرف لاحقًا في النصوص المسمارية بأسماء مثل سوبارتو والحوريين، إذ تمثّل هذه التسميات تطوّرًا في التوصيف السياسي والإثني لنفس الكتلة السكانية التي شاركت في التأسيس المبكر للحضارة الرافدية. وعليه، فإن مركزية زاغروس والشمال لا تكمن في كونها «أطرافًا» مغذّية لسومر، بل في كونها المجال البنيوي الذي انبثقت منه أنماط الاستقرار والتنظيم التي ستُعاد صياغتها لاحقًا في شكل حضارة مدينية جنوبية.

الهوامش والمراجع الغربية الداعمة

1. **Daniel T. Potts**,
   Mesopotamia and the East: An Archaeological and Historical Study of Foreign Relations, Oxford University Press, 1997.
   — يبرز دور زاغروس والشرق في تكوين جنوب الرافدين.

2. **Norman Yoffee**,
Myths of the Archaic State, Cambridge University Press, 2005.
— يفكّك فكرة النشوء الداخلي الخالص للدولة السومرية.

3. **Mario Liverani**,
The Ancient Near East: History, Society and Economy, Routledge, 2014.
— يؤكد على الاستمرارية السكانية بين الشمال والجنوب.

4. **Piotr Steinkeller**,
"The Formation of the Early State in Mesopotamia," Chicago, 1993.
— يناقش العلاقة البنيوية بين المجال الجبلي والمدينة.

5. **J. Nicholas Postgate**,
Early Mesopotamia, Routledge, 1994.
— يوضح دور الشمال في الاقتصاد والديموغرافيا المبكرة.

من زاغروس إلى سومر: التحوّل من الجبل إلى المدينة

يمثّل نشوء الحضارة السومرية في جنوب بلاد الرافدين ذروة مسار تاريخي طويل لا يمكن تفسيره بوصفه تطوّرًا داخليًا معزولًا، ولا كنتيجة لظهور «شعب سومري» مستقل إثنيًا. فالمعطيات الأثرية والتاريخية تشير بوضوح إلى أن التكوين المبكر للمجتمعات المدينية في السهول الجنوبية كان ثمرة تفاعل بنيوي ممتد مع المجال الزاغروسي–الشمالي، حيث تشكّلت القاعدة السكانية والاجتماعية التي غذّت عملية التحضّر الأولى في تاريخ الشرق الأدنى.

لقد شكّلت مرتفعات **جبال زاغروس** وشمال الهلال الخصيب فضاءً بشريًا سابقًا على المدينة، تميّز بأنماط استقرار مرنة، وتنظيمات اجتماعية مبكّرة، واقتصاد يعتمد على الحركة الموسمية بين الجبل والسهل. ولم يكن انتقال هذه الجماعات نحو الجنوب هجرةً فجائية أو إحلالًا سكانيًا، بل حركة تراكمية طويلة الأمد (جبل ↔ سهل ↔ مدينة)، أسهمت في نقل الخبرة الاجتماعية والتنظيمية إلى بيئة السهل الرسوبي، حيث أُعيدت صياغتها في شكل مدن ومؤسسات مركزية.

في هذا السياق، لا تُفهم «سومر» بوصفها اسم شعب، بل توصيفًا حضاريًا–وظيفيًا لمرحلة مدينية مبكّرة مثّلت أول تجلٍّ منظّم لهذا التحوّل. فاللغة السومرية، كما تكشف النصوص المسمارية، كانت لغة إدارة ودين واقتصاد مديني، لا علامة هوية إثنية مغلقة. ويؤكّد تراجعها اللاحق أمام الأكدية أن التحوّل الذي شهده جنوب الرافدين كان لغويًا–سياسيًا مرتبطًا بصعود لغة الدولة، لا انقطاعًا سكانيًا أو اختفاءً لجماعات بشرية.

ومن هنا، تكتسب التسميات التي تظهر لاحقًا في الشمال، مثل سوبارتو والحوريين، دلالة خاصة؛ إذ لا تعبّر عن شعوب وافدة أو بديلة، بل عن تطوّر في التوصيف الإثني–الإقليمي لنفس القاعدة السكانية التي شاركت في التأسيس المبكر للحضارة الرافدية، بعد أن انحسر الدور المديني الجنوبي لصالح فضاءات الشمال والجبال. وبذلك، يمثّل الحوريون الامتداد الإثني الأوضح لتلك الكتلة البشرية التي عبّرت عن نفسها حضريًا في مرحلة سومر.

وعليه، فإن مركزية زاغروس والشمال لا تكمن في كونها «أطرافًا» تمدّ سومر بالموارد أو البشر فحسب، بل في كونها الإطار البنيوي الذي انبثقت منه التجربة السومرية ذاتها. فسومر ليست نقطة بداية منفصلة، بل لحظة تحوّل تاريخي من نمط جبلي–سهلي إلى نمط مديني مركزي، وهو تحوّل لا يمكن فهمه إلا ضمن منطق الاستمرارية السكانية والتطوّر الوظيفي للهوية، لا ضمن سرديات الانقطاع أو «الشعوب المنقرضة».

تفكيك السرديات القومية الحديثة حول البدايات

تقوم السرديات القومية الحديثة في الشرق الأدنى على إسقاط مفاهيم الهوية القومية، والحدود السياسية، والانتماء الإثني الصلب على عصور ما قبل الدولة الحديثة، وهو إسقاطٌ منهجيّ غير مشروع تاريخيًا. فهذه السرديات تفترض وجود «شعوب» متجانسة ومستقرة منذ الألف الرابع أو الثالث قبل الميلاد، وتتعامل مع كيانات حضارية مثل سومر بوصفها أممًا قومية مبكّرة، في حين تُظهر المعطيات الأثرية والنصية أن المجتمعات القديمة كانت بنى مفتوحة، متحركة، ومتداخلة، لا تُعرّف نفسها وفق مفاهيم الهوية القومية الحديثة.

ينطلق التفكيك المنهجي لهذه السرديات من التمييز الصارم بين **الهوية الحضارية** و**الهوية الإثنية** و**الهوية السياسية**. فسومر، على سبيل المثال، ليست «أمّة سومرية»، بل إطار حضاري–مديني تشكّل ضمن مسار تاريخي تراكمي، عبّرت فيه جماعات بشرية متعدّدة عن نفسها عبر لغة إدارة ودين ومؤسسات، دون أن يعني ذلك تشكّل شعب إثني مغلق أو وعي قومي بالمعنى الحديث. إن تحويل اللغة السومرية إلى دليل إثني، أو اعتبار المدن السومرية تعبيرًا عن «شعب مؤسِّس» واحد، يعكس قراءة قومية لاحقة لا تستند إلى منطق النصوص القديمة نفسها.

كما تُظهر السرديات القومية نزعة إلى البحث عن «أصل نقي» أو «شعب أول»، وهي نزعة تتناقض مع طبيعة المجتمعات القديمة القائمة على الحركة، والتفاعل، وإعادة التشكل. فالتكوين المبكر لبلاد الرافدين لم يكن نتاج مجموعة واحدة منغلقة، بل حصيلة تفاعل طويل بين المجال الجبلي–الزاغروسي والسهل الرافدي، حيث جرى الانتقال من أنماط استقرار مرنة إلى تنظيمات مدينية مركزية. وعليه، فإن البحث عن هوية قومية ثابتة في هذه المرحلة يُفرغ التاريخ من ديناميكيته، ويحوّله إلى سردية انتقائية تخدم الحاضر أكثر مما تفسّر الماضي.

وتتجلّى خطورة هذه السرديات في توظيفها السياسي المعاصر، حيث تُستخدم مفاهيم «الأسبقية التاريخية» و«الاستمرارية القومية» لإضفاء شرعية حديثة على كيانات أو هويات معاصرة، عبر ربطها تعسّفيًا بحضارات قديمة لم تكن تُعرّف نفسها بهذه الطريقة. إن هذا التوظيف لا يشوّه فهم الماضي فحسب، بل يعطّل إمكان قراءة التاريخ بوصفه مسارًا إنسانيًا مركّبًا، قائمًا على التحوّل لا الثبات.

بناءً عليه، فإن تفكيك السرديات القومية الحديثة حول البدايات لا يهدف إلى نفي التاريخ أو إلغاء الهويات، بل إلى **إعادة وضعها في سياقها الزمني الصحيح**. فالهويات في الشرق الأدنى القديم كانت نتاجًا لوظائف اقتصادية وسياسية وثقافية متغيّرة، لا تعبيرًا عن أمم قومية بالمعنى الحديث. ومن هنا، يصبح فهم سومر والحوريين وسوبارتو وغيرهم ممكنًا

فقط ضمن منطق الاستمرارية السكانية والتحوّل الوظيفي، لا ضمن سرديات الأصل الواحد أو الشعب الخالد.

القومية الحديثة vs التاريخ القديم: مقاربة مقارنة

تقوم القومية الحديثة على افتراض وجود هوية جماعية ثابتة، متجانسة، وذات جذور عميقة في الماضي، تُسقَط بأثر رجعي على العصور القديمة لتأسيس سرديات «الأسبقية» و«الاستمرارية». أمّا التاريخ القديم، كما تكشفه النصوص الأثرية والمصادر الأولية، فيُظهر واقعًا مغايرًا يقوم على سيولة الهويات، وتعدّد الانتماءات، وتحكّم الوظيفة السياسية–الاقتصادية في تعريف الجماعات البشرية. فبينما تفترض القومية الحديثة أن اللغة تعني شعبًا، وأن الأرض تعني قومية، وأن الاسم يدلّ على هوية إثنية مستقرة، يبيّن التاريخ القديم أن اللغة كانت أداة إدارة ودين، وأن الجغرافيا كانت فضاءً للحركة لا للحدود، وأن التسميات كانت توصيفات وظيفية أو إقليمية تتبدّل بتبدّل السياق السياسي. وتكشف حالة سومر بوضوح هذا التناقض؛ إذ تُحوَّل في الخطاب القومي الحديث إلى «أمّة سومرية» مؤسسة، في حين أنها في سياقها التاريخي تمثّل إطارًا حضاريًا–مدينيًا نشأ عن تفاعل طويل بين المجال الزاغروسي–الشمالي والسهل الجنوبي، دون أن يعبّر عن وعي قومي أو إثني مغلق. وعليه، فإن القومية الحديثة تقرأ الماضي بمنطق الحاضر، بينما يفرض التاريخ القديم مقاربة معاكسة ترى الهوية بوصفها نتاجًا متحوّلًا للبنى الاجتماعية والسياسية، لا جوهرًا ثابتًا عابرًا للعصور.

إحالات غربية داعمة (للاستخدام في الهوامش)

- **Benedict Anderson**, *Imagined Communities*, Verso.
  — في تفكيك نشوء القومية بوصفها بناءً حديثًا متخيَّلًا.
- **Eric Hobsbawm**, *Nations and Nationalism since 1780*, Cambridge University Press.
  — يبيّن حداثة القوميات وإسقاطها على الماضي.
- **Norman Yoffee**, *Myths of the Archaic State*, Cambridge University Press.
  — يفكّك فكرة «الدولة/الشعب البدائي» المتجانس.
- **Mario Liverani**, *The Ancient Near East*, Routledge.
  — يؤكد سيولة الهوية في الشرق الأدنى القديم.

بين منهج التاريخ وخطاب الأيديولوجيا: حدٌّ منهجيّ ضروري

يقتضي منهج البحث التاريخي الصارم التمييز الواضح بين تحليل الماضي بوصفه ظاهرة إنسانية مركّبة، وبين توظيفه الأيديولوجي لخدمة تصوّرات معاصرة عن الهوية والأصل والانتماء. فالتاريخ، بوصفه علمًا، ينطلق من قراءة نقدية للمصادر، ويعتمد على السياق الزمني والاجتماعي والسياسي لفهم الظواهر، دون افتراض نتائج مسبقة أو إسقاط مفاهيم حديثة على مجتمعات لم تنتجها. أمّا الخطاب الأيديولوجي، فيقوم على انتقاء الماضي وإعادة ترتيبه وفق حاجات الحاضر، محوّلًا الكيانات الحضارية إلى «أمم» مبكّرة، واللغات إلى هويات إثنية ثابتة، والتحوّلات التاريخية إلى سرديات استمرارية قومية مغلقة. ومن هنا، فإن وضع حدٍّ فاصل بين المنهجين لا يعني نفي الهويات المعاصرة أو الطعن في شرعيتها،

بل يعني تحرير دراسة التاريخ القديم من منطق التبرير السياسي، وإعادته إلى مجاله العلمي بوصفه سجلًّا للتحوّل والتفاعل والتعدّد، لا مخزنًا لأصول قومية جاهزة. وبهذا الفصل المنهجي، يصبح فهم حضارات مثل سومر والحوريين وسوبارتو ممكنًا ضمن منطقها التاريخي الخاص، لا ضمن إسقاطات أيديولوجية لاحقة تشوّه الماضي بقدر ما تخدم الحاضر.

الخاتمة العامة

لا يسعى هذا الكتاب إلى تقديم سردية بديلة جاهزة، ولا إلى إحلال يقين جديد محل يقين قديم، بل إلى إعادة التفكير في طريقة مقاربتنا للتاريخ القديم نفسه. فقد أظهر التحليل، عبر تتبّع المسارات السكانية والثقافية والمؤسساتية، أن ما نسمّيه «البدايات» لم يكن لحظة انبثاق مفاجئة لشعوب متجانسة أو هويات مكتملة، بل سيرورة طويلة من التحوّل، والتفاعل، وإعادة التشكّل ضمن فضاءات مفتوحة ومتداخلة.

من زاغروس إلى سومر، ومن الجبل إلى المدينة، تتجلّى الحضارة بوصفها نتيجة حركة بشرية مستمرة، لا ثمرة أصل نقي أو شعب مؤسِّس معزول. فالمجتمعات الأولى في الشرق الأدنى لم تُعرّف نفسها وفق منطق القومية أو الإثنية المغلقة، بل وفق وظائف اقتصادية، وبنى اجتماعية، وأنماط استقرار متغيّرة، عبّرت عنها لغات إدارة ودين، وتسميات إقليمية وسياسية قابلة للتبدّل. وفي هذا الإطار، تغدو سومر مرحلة حضرية ضمن مسار أوسع، ويظهر الحوريون وسوبارتو وغيرهم كامتدادات تاريخية لنفس القاعدة السكانية، لا كقطائع أو بدائل حادّة.

لقد بيّن هذا العمل أن الخلل لا يكمن في نقص المعطيات، بل في إسقاط مفاهيم حديثة على عصور لم تنتجها. فحين تُقرأ المجتمعات القديمة بمنطق القومية الحديثة، يتحوّل التاريخ إلى أداة تبرير، وتفقد الهويات المعاصرة عمقها الإنساني لتغدو أسيرة سرديات الأصل الواحد والاستمرارية المتخيّلة. أمّا الفصل المنهجي بين التاريخ كعلم، والأيديولوجيا كخطاب، فيُعيد لكلٍّ منهما مجاله وحدوده، دون نفي للحاضر أو مصادرة لحقه في الهوية.

وعليه، فإن قيمة هذا الكتاب لا تكمن في الإجابة عن سؤال «من كان الأول؟»، بل في تفكيك السؤال نفسه، وإعادة توجيه الاهتمام نحو فهم كيف تشكّلت المجتمعات، وكيف تحوّلت الهويات، وكيف استمرّ الإنسان في إعادة تنظيم عالمه عبر الزمن. فالتاريخ، في جوهره، ليس سجلًّا للأصول، بل شهادة على القدرة البشرية الدائمة على التحوّل والتكيّف.

بهذا المعنى، لا تُغلق هذه الصفحات نقاشًا، بل تفتح أفقًا أوسع لقراءة التاريخ القديم خارج القوالب القومية واليقينيات المسبقة، بوصفه تاريخًا إنسانيًا مركّبًا، تتقدّم فيه المسارات على الأسماء، والحركة على الثبات، والفهم النقدي على الأسطورة.

اللغة بوصفها وظيفة تاريخية لا هوية إثنية

ينسجم هذا الاستنتاج مع ما طُرح سابقًا في هذا الكتاب من أن اللغة في الشرق الأدنى القديم لم تكن معيارًا للهوية الإثنية، بل أداة وظيفية ارتبطت بالإدارة والدين والتنظيم الحضري.

فكما لم تُنتج السومرية «شعبًا سومريًا» بالمعنى القومي، ولم تجعل الأكدية من مستخدميها «قومًا أكديين»، كذلك لا يمكن قراءة الحورية أو غيرها من لغات المنطقة بوصفها دلائل على هويات مغلقة أو أعراق متمايزة. إن التحوّل اللغوي الذي رافق الانتقال من سومر إلى الأكدية، ومن المجال الجنوبي إلى الشمالي، يؤكّد أن ما تغيّر هو لغة السلطة وأدوات التمثيل السياسي، لا القاعدة السكانية ذاتها. وبهذا المعنى، تصبح اللغة شاهدًا على التحوّل التاريخي لا على الأصل، وعلى الوظيفة لا على النسب، وهو ما ينسجم مع النموذج الذي اعتمده هذا الكتاب في قراءة الاستمرارية الزاغروسية–الحورية بوصفها مسارًا بشريًا متواصلاً عبّر عن نفسه بأدوات لغوية مختلفة تبعًا للسياق، لا بهويات إثنية متقطّعة.

وفي الختام:

الإنسان لا يرث التاريخ، بل يخلقه في كل تحوّل يعيد به تعريف ذاته.

مع تحياتي الباحث والمفكر والمؤرخ أمير أبو حديد.